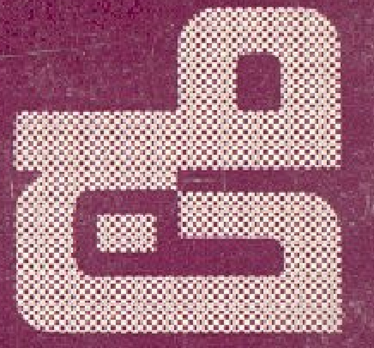


المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

جاك كوسنييه

مقدمات في علم النفس

ترجمة: د. رالف رزق الله

مقدمات في
علم النفس

الطبعة الاولى

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الحمراء ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام

هاتف: ٨٠٢٤٠٧ ـ ٨٠٢٤٢٨ ص . ب ١١٣/٦٣١١ بيروت ـ لبنان

مقدمات في علم النفس

ترجمة: د. رالف رزق الله

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

هذه ترجمة كتاب :

JACQUES COSNIER

Clefs Pour LA PSYCHOLOGIE

EDITIONS SEGHERS

تقديم

ثمة ملاحظة هامة ـ في رأينا ـ يبديها الكاتب في كتابه . وهي ان كبار اعلام علم النفس لم يكونوا من « النفسانيين » فبياجيه ، على سبيل المثل كان عالماً إحيائياً . وفرويد كان طبيباً . كما ان واطسون كان عالم حيوان . الخ .

هل يمكن اعتبار كوسنييه علماً من اعلام علم النفس ، وخاصة انه يطرح في مؤلفه موضوع هويّة علم النفس تماماً كما فعل واطسون قبل سبعة عقود . على كل حال ، ان كوسنييه ، تماماً ككل اعلام علم النفس ، لم يتخرّج من معهد لعلم النفس ، كما لم يحمل اجازة في هذا « العلم » . فهو طبيب في الاصل ودكتور في العلوم ، واهتم لاحقاً بمسائل الاتولوجيا وعلم النفس . ويتابع حالياً في جامعات ليون ابحاثاً اتولوجية وانتروبولوجية حول الاتصالات في الحياة اليومية .

ويمكن مقارنة «مقدّمات» كوسنييه «بالبيان السلوكي» الذي اصدره واطسون عام 1923 ، ذلك أنه يقترح تحديداً جديداً لعلم النفس كما يدعو ـ بالاضافة الى ذلك ـ الى التخلّي نهائياً عن عبارة « علم نفس » Psychologie لاستبدالها بعبارة جديدة « علم الاتصال » Communicologie . ويطرح كوسنييه موضوع هويّة علم النفس على

مستويين : المستوى الترامني والمستوى التاريخي . فعلى المستوى الأوّل ، يتكلّم كوسنييه عن ثلاثة اتجاهات تتنازع علم النفس في الوقت الحاضر : علم الإحياء من جهة ، وعلم الاجتماع من جهة اخرى والفلسفة من كل الجهات - كما يلاحظ ايضاً توزّع تعليم علم النفس على عدّة كليّات .

ويميّز كوسنييه ، من الناحية التاريخية ، بين ثلاث مراحل مرّ بها علم النفس وشهد في كل منها تغييراً على صعيد موضوع الدراسة والطرق والمناهج المتّبعة لدراسة هذا الموضوع .

1 - المرحلة الفلسفية حيث كان علم النفس يشكّل جزءاً لا يتجزأ من المقالة الفلسفية . ويشير الكاتب في هذا المجال الى الدور الذي لعبته الثنائية الديكارتية في ابراز النفس او الوعي كموضوع مستقل لدراسة علم النفس .

2 - علم النفس كعلم للحياة النفسية . وقد تأثّر علم النفس في هذه المرحلة بالاكتشافات التي حققتها العلوم الفيزيولوجية . ويشير الى استعمال الطريقة التجريبية في علم النفس دون التوصل الى التخليّ نهائياً عن الإستبطان هذا الاستبطان الذي اعتبره غانغييم بمثابة « الابن غير الشرعي للجدس الديكارتي » على كل حال من السذاجة الاعتقاد ان علم النفس التجريبي قد تحوّل في هذه المرحلة الى علم فعلي . اذ تماماً كما يتكلم بوليتزر في وصفه لهذه المرحلة : « ان علماء النفس علميون تماماً كما يكون المتوحشون الذين بُشّروا بالانجيل - مسيحيين » . . . او ايضاً . « يتصرّف النفساني بغباء تجاه الانسان كما يتصرّف آخر الجاهلين ، والغريب في الامر علمه لا يفيده حين يكون تجاه موضوع

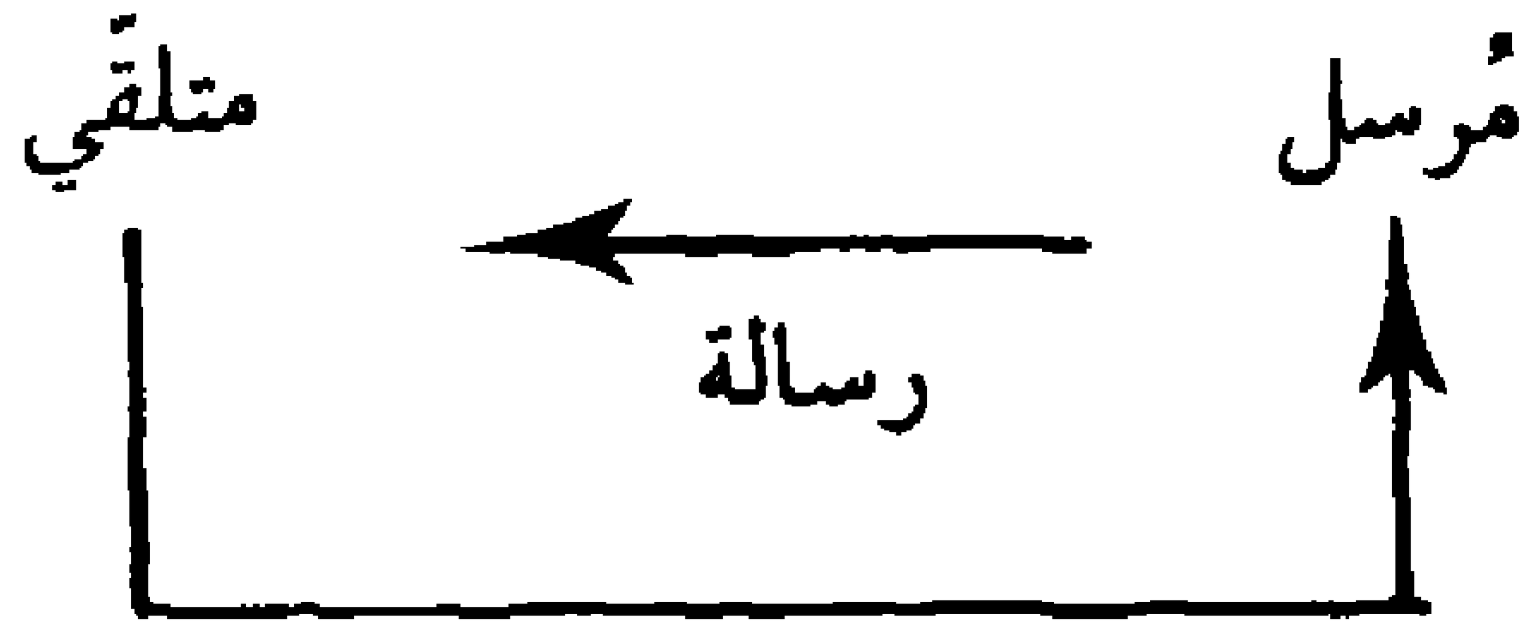
هذا العلم . فلا يفيده هذا العلم الا حين يتواجد مع زملاء له » .

3 ـ اما المرحلة الثالثة التي يتكلّم عنها كوسنييه في عرضه التاريخي لعلم النفس ، فهي علم النفس كعلم للسلوك . فعام 1913 هو العام الذي شهد القضاء على الوعي ، وذلك من قبل البيان السلوكي الـذي اصدره واطسون والبيان الطواهـري الـذي اصـدره هوسرل . ويشـير كوسـنييه الى اتجاهـين سيدعمان الموقف السلـوكي . الاتجـاه الاول هو القياس النفسي الذي جعل من الاختبار النفسي المقنّن مجرّد مثير ومـن اجابات المفحوص مجرّد استجابات . اما الاتجاه الثاني . فهو التحليل النفسي الذي باكتشافه للاوعي ، قضى نهائياً على علم النفس السابق ، اي على علم النفس كعلم لوقائع الوعي .

ويتنذّر كوسنييه بمرحلة رابعة لم تبرز بعد تماماً ، وهي مرحلة يكون هو ـ اي كوسنييه ـ رائدها : علم النفس كعلم للاتصال . والواضح في الامر تأثر كوسنييه الشديد ببوليتزر الذي كان يأخذ على السلوكية عجزها عن تقـديم اسس لعلـم نفس عيانـي « كما اراده هو ، اي علـم لحياة الانسـان المأســوية » في حــين كان يرى نواة هذا العلــم في التحليل النفسي . والا يرتـكز التحليل النفسي الى مادة اسـاسية هي اللغـة كما يلاحظ ذلك لاكان .

تمدّ هذه المرحلة الجديدة ـ التي يتكلّم عنها كوسنييه ـ (علم النفس « الاتّصالي » جذورها في ميدانين مختلفين في الاصل : « علـم الاحياء من جهة والذي شهد تطوّر علم الوراثة والاتولوجيا . » الالسـنية من جهة اخرى ، وهي العلم المموّن بالنماذج والمؤثّر على العلوم الانسـانية الاخرى .

حان الاوان ، بالنسبة لكوسنييه لتجاوز النموذج السلوكي القديم مثير استجابة في نموذج أكثر شمولية نرى نواته عند شانون . ويمكن تلخيص هذا النموذج على النحو التالي .



والجدير بالذكر انه يمكن تطبيق هذا النموذج على الاتصالات الحيوانية والانسانية وعلى كل انماط الاتصال . كما قد يسمح ربما باعطاء عناصر اولية تشكّل نواة جواب للسؤال الذي طرحه نمانغييم عام 1958 : هل يمكن الحديث بدقّة عن نظرية عامة للسلوك ما دمنا لم نحل بعد المسألة التالية : « هل ثمة اتصال او انقطاع بين اللغة البشرية واللغة الحيوانية ، وبين المجتمع البشري والمجتمع الحيواني ؟ » .

فالنفساني هو دائماً في وصفية اتصال ، مع انه يجهل ذلك تماماً كمسيو جوردان الذي كان يتكلم النثر دون ان يكون واعياً لذلك .

على ان لا نستنتج من كل ما سبق فقدان خصوصية علم النفس وتلاشي الحدود بين هذا العلم والالسنية . اذ لا بد بادىء ذي بدء من التمييز بين **اللسان والكلام** .

اللسان ، تبعاً لتحديد كوسنييه « مجرّد موضوع اجتماعي ، وهو المجموعة المنظّمة للإصطلاحات والمستقلّة تماماً عن مادة الاشارات التي

تؤلّفها . اما الكلام ، « فهو مجرّد جانب فردي من اللغة . هو فعل فردي حيث يتم الانتقاء والتجسيد . وبفضل الكلام ، يستطيع الفرد المتكلم ان يستعمل نظام اللسان للتعبير عن فكرة الشخصي .

ويهتم الالسنيون بوقائع اللسان ، ولا يهتمـون بوقائـع الـكلام . ويمكن تبعاً لكوسنييه ، تعيين موقع النفسانيين على النحو التالي . « هم الذين يهتمّون بالكلام » .

وتقوم المهمة الاساسية للنفساني على كشف المعاني الخاصة بالاتصال العياني . وهذا لا يتم حسب كوسنييه الا بربط المعنى بالوضعية العيانية وبالسمات الخاصة بالمتكلّمين ويعود كوسنييه في هذا المجال الى التمييز بين التعيينDénotation والتضمين Connotation . ويتناظر التعيين مع الدلالـة . أي ان التعيين يُعطـى بالنسبـة لكل علامـة الســنية في القاموس . والتعيين هو ما يسمح للقوم بالتفاهم كما يسمح بالترجمة من لسان الى آخر .

اما مفهوم التضمين ، فيتّسم بقدر أكبر من التعقيد . ذلك ان هذا المفهوم يشير الى « كل ما في استعمال كلمة ، لا ينتمـي الى تجربـة كل مستعملي هذه الكلمة في هذا اللسان . اذ يشير هذا المفهوم الى « العوامل الانفعالية والشخصية للفهم » ويشير كوسنييه الى عدة وسائل برزت في علم النفس لقياس التضمين ابرزهـا « المفرِّق الـدلالي لاوسغـود OSGOOD .

ويصبح هكذا علم النفس اختصاصـاً علمياً مركّزاً على الاتصـال البشري . ولهذا التوجه الجديد فائدة كبرى ، ذلك انه يسمح باستيعاب الاكتسابات السابقة لكل ميادين علم النفس . كما يسمح ايضاً ، تبعاً

لكوسنييه ، بجعل علم النفس مطابقاً لحدس الجمهور .

.... « ذلك انــه ليس من الضروري الالمام بالميكانيك لقيادة سيارة » مثلاً ، ولا يفيد في شيء « معرفة النحو او الاملاء ولا حتى اسس القراءة والكتابة لفهم اللغة المحلية » . وسيستعمل النفساني استجاباته الأكثر غموضاً ، اي الاستجابات التضمينية التي ستسلّمه غالباً المفتاح التأويلي الضروري لاكتشاف المعنى او المعاني وراء الدلالة . وسيحاول النفساني المنخرط ارادياً في الوضعية ان يستعمل قدر الامكان شخصيتـه واستجاباته الدلالية الخاصة ـ سيستمع الى المفحوص ، كما سيستمع من جهة اخرى ـ واذا صحّ التعبير ـ الى نفسه ـ وهذا يتطلب تكويناً عميقاً يستحيل تنظيمه .

بيروت في 14 ايلول 1982
رالف رزق الله

1 ـ مقدّمــة

مسألة التحديد وصعوباتها
علم النفس : مفردة متعدّدة الدلالات

لعلـم النفس أوجـه عديدة متناقضـة أحيانـاً ؛ ممـا يكوّن سحـره الفاتن ، وغموضه ، وأيضاً تعقيده ، وعدم تماسكه ، وغرارته . ويمكن التكلّـم عن علم النفس كما يتكلّـم البعض عن العشيقات .

لنذكر باديء ذي بدء بعضاً من خصائصه :
* الخاصية الأولى التي قد تُدهِش القارىء غير المطّـلع هي التالية : لم يتم الاتفاق بعد على موضوع علم النفس ولا على تحديده .

سنرى أن علم النفس قد احلّ تدريجياً دراسة الحياة النفسية محل دراسة الروح . ثم أصبح علم النفس دراسة السلوك ليهتم مجدّداً بالحياة النفسية ـ الوعي ـ الشخصية ، وأخيراً « بالاتصال » . وقد يتساءل المرء ما إذا كان عالم النفس في أيامنا هذه يهتم بالموضوع نفسـه الـذي كان يدرسه النفسانـي بالأمس . كما قد يتسـاءل المرء أيضـاً ما اذا كان من الضروري الاحتفاظ بعبارة « علم النفس » ، او اذا كان من الافضـل

رميها نهائياً في مخزن تاريخ الأفكار . فبعد خمسين سنة من الجهود المبذولة ، تبين أن علم النفس لا يمكن أن يكون دراسة « النفس » . وكلمة « النفس » في عبارة « علم النفس » تولّد اللبس ولا تخدم العلم .

يتوزّع تعليم هذا « العلم » أو هذا « المجال العلمي غير المحدَّد » في بلاد كفرنسا على كليات العلوم والآداب والطب .

ثلاثة اتجاهات تتنازع علم النفس : علم الإحياء من جهة ، وعلم الاجتماع من جهة أخرى ، والفلسفة من كل الجهات تقريباً . . . وفي مرحلة يشكّل فيها « تعدّد الاختصاص » القوة الرئيسية في الجامعة الجديدة ، يؤلمنا فعلاً أن نرى أن « تعدّد الدوغماتية » الملازم لعلم النفس لا يسمح بتحقيق هذا العلم الا نادراً .

ويكمن أفضل تعبير عن هذا الوضع في أن غالبية اعلام علم النفس لم يكونوا من النفسانيين . فبافلوفPAVLOV عالم فيزيولوجي ؛ وفرويدFREUD طبيب أعصاب ؛ ولورنزLORENZ عالم حيوان . وكبار النفسانيين المعاصرين هم من المتخصصين في مجالات أخرى : فبينيهBINET دكتور في العلوم . وفالونWALLON دكتور في الطب . وبياجيهPIAGET دكتور في العلوم . . . كي لا نذكر غيرهم .

فالنفسانيون (أي الذين يمارسون علم النفس) لم يبنوا « المجال العلمي » لعلم النفس . كذلك لم يعلّم النفسانيون هذا الميدان من المعرفة . فالذين كانوا يعلّمون علم النفس غير الذين كانوا يمارسونه . وقد شاء التقليد أن يكون علم النفس تابعاً ـ في فرنسا ـ للآداب

والفلسفة . فالذين يعلّـمون علم النفس هم غالباً من الأساتذة وليسوا من النفسانيين الممارسين (وهذا ليس بالأمر الغريب اذا ما أخذنا بعين الاعتبار تنظيمهم في المرحلة الراهنة) . ويمكن دحض ذلك ، والقول أنه كان لا بدّ أن يلحق ظهور النفسانيين بروز علم النفس (كمجـال علمي) . والواقع أن بعض النفسانيين الممارسين لا يصلون الى التعليم الا بعد تجاوزهم للعديد من الصعوبات .

* تهدف هذه الملاحظـات النقـدية والتمهيدية الى تبيان أن عبـارة « علم النفس » قد تشير الى « العلم النفساني » الذي يصيغه ويعلّـمه غير النفسانيين ، كما قد تشير الى ممارسة مهنية : مهنة النفساني .

يمكن دراسة علم النفس وتعليمه كما يمـكن ممارسـة علـم النفس وتطبيقه . وحتى فترة قريبة ، كان الأمران يختلفان تماماً . فالذين كانوا يعلّـمون علم النفس لم يكونوا يمارسونه الا نادراً . ولا بد أن نحاول تفسير هذا الأمر .

لكن لا بد أيضاً أن ندرس عن كثب علم النفس كمهنة . هل نحن إزاء مهنة محدّدة أو مهن متعدّدة ؟ فلقب « النفساني » يحمله متمرّسون يختلفون من حيث اهتماماتهم ولغتهم : علماء نفس تربويون ، معالجون نفسـانيون ، علماء نفس تقنيون ، علماء نفس العمـل ، موجّهـون مهنيون ، باحثـون في المختبـرات . . . الـخ . وليس من البديهـي أن يكون لهؤلاء المتمرّسين الكثير من النقاط المشتركة . والفشل الذي لاقاه مشروع تنظيمي (قـريب العهـد) لعلماء النفس يبرهـن أن اهتمامـات النفسانيين المتباعدة تفوق بكثير اهتماماتهم المشتركة .

* ذلك انه ـ وقد يثير هذا الأمر دهشة القارىء غـير المطّـلـع ـ لم

يتم ، حتى الآن ، تنظيم عمل النفسانيين ـ فالضمان الاجتماعي لا يعترف بالنفسانيين الذين يعملون كمساعدين طبّيين . كما أن جابي الضرائب يقدّم لعلماء النفس العياديين ضريبة مهنة « قارئة الكفّ » .

● كل هذه الأسباب ـ وأسباب أخرى سنذكرها فيما بعد ـ جعلت من علم النفس (« كاختصاص علمي » ، و« كمهنة ») هدفاً مفضّلاً لنقّاد العلوم الانفعاليين ولعلماء الاجتماع الدجيين . وخلال السنوات الأخيرة ، حُمل علم النفس كل الخطايا . والاتهام الأكثر تفاهة هو الاتهام القائل أن علم النفس مجرّد أيديولوجية بورجوازية لا تفيد الا دعم الرأسمالية واسترداد المنحرفين . ولا يكون النفساني ، حسب هذا التصوّر ، سوى شرطي ممتاز .

فالدولة البورجوازية لم تُدرك حتى الآن المساعدة الفريدة من نوعها التي قد يوفّرها النفسانيون لها . وهي تستمر في استغلالها لهم ؛ فلا يتقاضون سوى الرواتب الزهيدة . كما ترفض انشاء وظائف طالما طالب بها النفسانيون[1] .

ومع ذلك ، يستمر البعض في التكلّم عن علم النفس وعن النفسانيين . وستحاول اذاً هذه المداخل ان تُدخِل القارىء في هذا المجال المعقّد . وهو مجال اكثر تعقيداً مما يتصوّره في البدء .

وتشير تأملاتنا السابقة الى الخطة المختارة . سندرس في الجزء الأول

---

(1) عام 1971 ، كان النفساني المُستخدم مؤقتاً يتقاضى ـ في فرنسا ـ 11,50 فرنكاً مقابل كل ساعة عمل . (اي ما يوازي الآن تسع ليرات لبنانية)

من هذا الكتاب علم النفس كعلم . وفي الجزء الثاني ، سندرس علم النفس كمهنة . أما الجزء الثالث ـ وهو الجـزء الأقصر من غـيره ـ من الأجزاء ـ فيطرح إشكالية علم النفس كوظيفة .

2 ـ علم النفس كعلم

في عام 1967 ، صدر عن « المطابع الجامعية في فرنسا »Presses Universitaires de France كتاب « نقد أسس علم النفس » لجورج بوليتزرGeorges POLITZER . ويتضمّن هذا الكتاب هجاءً قيّماً وفريداً لعلم النفس . ولعلّ أكثر من قارىء متسرّع قد اعتقد ـ حين تناول هذا المؤلّف ـ أن بوليتزر هو من الأساتذة الشباب والمعارضين في الجامعة الجديدة . إلا أن بوليتزر قد كتب هذا البحث عام 1928 . ويعلن في الصفحة 6 من الكتاب (مع التشديد على الفكرة) : « أن علماء النفس علميون تماماً كما يكون المتوحّشون ـ الذين بُشِّروا بالانجيل ـ مسيحيين » . ويضيف بوليتزر في نهاية الصفحة نفسها : « بعد خمسين سنة سيُنظر الى علم النفس ـ الذي يُعتبر رسمياً اليوم ـ تماماً كما ننظر الآن الى الكيمياء القديمة والى التخريفات اللفظية للفيزياء الارسطوطاليسية » .

كيف يبدو الأمر بعد انقضاء أربعين سنة ؟ الم يغالي بوليتزر في تفاؤله ؟ هل يمكننا أن ندّعي عام 1970 ان هذا العلم النفساني الذي تجاهله أوغست كونتAuguste COMTE في تصنيفه للعلوم عام 1830 ، والذي عارضه بشدة بوليتزر عام 1928 قد برز أخيراً الى الوجود ؟

الأمر ـ علينا أن نعترف بذلك ـ ليس واضحاً للجميع . وقد كتب الفيلسوف ج . غانغييم G. GANGUILHEM عام 1958 (1) ما يلي : « حين نقول أن فعالية النفساني أمرٌ قابل للنقاش ، لا نعني بذلك أن فعالية النفساني تكون وهمية . جلّ ما في الأمر أن هذه الفعالية تفتقد الى الأسس الصحيحة **ما دمنا عاجزين عن البرهان انها ناتجة عن تطبيق لعلم** . بعبارة أخرى ، تبقى فعالية علم النفس مسألة خاضعة للنقاش ما دمنا عاجزين عن تنظيم عمل النفساني بطريقة تؤدي الى اعتباره أكثر ـ وأفضل ـ من مجـرّد شعـوذة مركّبـة ومنظّمـة أدبياً لغـايات التعليم !! . . . . دون أن ننسى أنـه خلال أحـداث أيار 1968 ، تم فضح علم النفس كنتاج مبلّـه ومخادع للايديولوجية الرأسمالية .

وتناول مسألة علم النفس كعلم يتضمّـن محاولة تحـديد موضوعـه ومناهجه .

فمنذ البداية ، تبرز ثمة صعوبة . فإذا كان الجاهل بأصـول هذا العلم يميل الى الاجابة مباشرة : انه علم الحياة النفسية ، سوف يُدرِك المطّلع على علم النفس انه لم يعد من الممكن ، في مرحلتنا الحاضرة ، تقبّـل هذا التحـديد . ذلك أن موضـوع علـم النفس قد تغيّـر خلال تاريخـه ، وإن كان هذا التـاريخ قصـيراً (لعلـم النفس ماضي طويل وتاريخ قصير ، كما يقول ابنغهـاوسEBBINGHAUS) . وأفضـل طريقة لتلخيص إشكالية علم النفس تكمـن في وصف تطـوّره ، هذا التطوّر الذي يمكن تقسيمه الى أربع مراحل :

---

(1) «Revue de Métaphysique et de Morale,» 1958, 1, 12-25.

١ ـ المرحلة ما قبل النفسانية أي المرحلة الفلسفية .
٢ ـ علم الحياة النفسية .
٣ ـ علم السلوك
٤ ـ علم الاتصالات .

المرحلة ما قبل النفسانية أو الفلسفية

تمتزج المرحلة ما قبل التاريخية لعلم النفس بتاريخ الفلسفة . فواقع علم النفس مماثل لواقع العلوم الأخرى . أي أن وجود هذا العلم كان نتيجة للاستقلالية الذي حققها تدريجياً بالنسبة للرحم الفلسفي الأصلي .

إلا أن علم النفس كان المولود الأخير . وقامت الفلسفة تجاهه بدور الأم الطاغية . ويُنسَب الاسم المعمداني (أي « علم النفس ») الى وولفWOLF . ذلك أن عبارة « علم نفس » قد ظهرت للمرة الأولى في كتابي هذا الأخير : « علم النفس التجريبي »(Psychologia (1732 empirica و « علم النفس العقلاني » (Psychologia (1734 rationalis . وقد شكّل موضوع هذا العلم مسألة ناقشها الفلاسفة واللاهوتيون منذ فترة طويلة : عنينا بذلك مسألة طبيعة « الروح » وعلاقاتها بالمادة .

وخلال هذه المرحلة الفلسفية اتخذ علم النفس شكل الخطاب الماورائي المركّز ضمنياً على علاقات الجسد والروح . (لم تكن عبارة

« الحياة النفسية » قد برزت بعد الى الوجود) .

وغالباً ما يُنظر الى موقف ديكارتDESCARTES في بداية القرن السابع عشر كموقف نموذجي . ففي حين كان الفلاسفة والمدرسيون يؤمنون بالوحدة الجوهرية للجسد والنفس ، قال ديكارت بوجود كيانين منفصلين : النفس متمايزة عن الجسد . ومعرفتها أسهل من معرفة الجسد . ذلك أنه يمكن إدراكها مباشرة في حين لا تُدرك المادة الا بواسطة الاحاسيس .

يمكن التمييز ، تبعاً للثنائية الديكارتية ، بين حياة عضوية وحياة نفسية تشكّلان تيارين متوازيين قد يمارسان التأثير المتبادل ، إلا انهما متمايزان اساساً .

أخيراً ، تكون النفس محفوظة للجنس البشري . وتكون الحيوانات مجرّد أجساد . انها « الحيوانات . الآلات » .

وخلال القرن التالي ، ناقش الفلاسفة مفاهيم ديكارت ، كما اعترضوا عليها مراراً .

فكونديّاكCONDILLAC المتأثر بالفلاسفة التجريبيين الانكليز (لوكLOCKE 1632 - 1704) والمعارض « لفطرية » ديكارت حاول أن يبينّ في كتابيه « بحث حول أصل المعارف الانسانية » و « مؤلف في الأحاسيس » ان الذهن يكون في البداية بمثابة لوح مصقول . إلا انه سيتنظم تدريجياً بفضل هذا العنصر القاعدي للحياة النفسية ، وهو الاحساس .

وفي المرحلـة نفسهـا فسرّ جايمس ميل James MILL وجـون ستيوارت ميل John Stuart MILL الحياة النفسية في مجملها بترابـط الأفكار .

وبالنسبـة لكل هؤلاء الكتّـاب ، لكتّـاب آخـرين ديكارتيين ، وحواسيين ، أو ترابطيينْ ، كان علم النفس المتّجه نحو الاستقلالية ، دراسـة لمعطيات النفس . كان علماً لوعـي الـذات أو للاحسـاس الداخلي . وتشكّلت الطريقة الأساسية من الاستبطان ، ذلك أنه يمكنَ للنفس ، كما قال ديكارت ، أن تعرف ذاتها مباشرة .

علم النفس كعلم للحياة النفسية

كان الميدان ناضجاً آنـذاك لبـروز ما عُرِف بأسـم « علـم النفس المعـاصر » الـذي نعتبـره بمثابـة المرحلـة الاولى في تاريخ علـم النفس الحقيقي . ولم يبرز هذا العلم الى الوجود كمجـال مستقـل الا خلال القرن التاسع عشر .

وتميّزت هذه الاستقـلالية بظهـور العلميين كالفيزيائيين والفيزيولوجيين والاطباء . كما اتّسمت ايضاً بانشاء المنابر والمختبـرات المتخصصّة .

ويمكن تلخيص الوضع في بداية القـرن التاسـع عشر على النحـو التالي : كان الفلاسفة ، من جهة ، يدّعون انه من الممكن تأسيس علم للحياة النفسية . الا انهم كانوا يعتبرون ان هذا العلم سيبقى تجريدياً

وصورياً ، لا يؤدي الى نتائج عملية ولا الى اكتشافات حقيقية . وكان العلميون ، من جهة اخرى ، وبفضل الطريقة التجريبية ، يبنون الفيزياء وعلم الإحياء . وقاموا باكتشافات اثارت ، بشكل مباشر ، اهتمام علم النفس : التمييز بين الاعصاب الحسية والحركية (بل وماجندي Bell et Magendie — 1811 — 1822) ، صياغة ج . مولر J. Muller (1838) لقانون الطاقة الخصوصية للاعصاب (لا يولد العصب الواحد الا نوعاً واحداً من الاحاسيس) ، قياس سرعة السائل العصبي (هلمهولتز 1850, Helmholtz) ، اكتشاف بروكا Broca (1861) لدور الفلقة الجبهية اليسرى الثالثة في اضطرابات الكلام . . . الخ .

فرغبة تحويل علم النفس الى علم قد تُرجمت على صعيد الممارسة الى تطبيق الطريقة التجريبية في دراسة الحياة النفسية وعناصرها .

ويمكن اعتبار ج . فكنر G. Fechner (1801 - 1887) بمثابة الممثل النموذجي لهذه المرحلة . وقد حاول بوضوح اثبات العلاقات الكمية القائمة بين المعطيات الخارجية ومعطيات الملاحظة الداخلية .

كما اقترح واستعمل طرقاً جديدة لقياس الظواهر النفسانية . فاستعاد بحث ڤيبر Weber (1795 - 1878) حول الاحساسات الجلدية واقام قانونه الشهير الذي عُرف منذ ذلك الوقت بقانون ڤيبر ـ فكنر : يتناسب الاحساس (S) طرداً مع لوغاريتم حدّة الاثارة (I) .

$$S = K \log I$$

وعام1860 كتب فكنر « مبادىء في علم النفس الفيزيائي » . وبعد بضع سنوات ، كتب فونـدت Wundt « مبادىء في علـم النفس الفيزيولوجي » (1873-1874) . ويُعتبر هذا الكتاب بمثابة اوّل مؤلَّف في علم النفس ، وقد تُرجم الى الفرنسية عام1886 . كما اسَّس ڤوندت عام 1878 اوّل مختبر لعلم النفس في مدينة لايبزغ Liepzig .

واتّسم الاتجاه العلمي في هذه المرحلة بالخصوصية . فتناولت المؤلّفات المواضيع « النفس - فيزيائية » و « النفس - فيزيولوجية » وكذلك الامر بالنسبة للمختبرات . فاوّل مختبر فرنسي (وقد أُسس عام 1889) عُرِفَ باسم « مختبر علم النفس الفيزيولوجي » . وهكذا اصبح علم النفس علماً ، لان العلميين اهتمّوا به ؛ ولانه اعلن ايضاً عن نزعته التجريبية .

الا ان موضوع علم النفس لم يتغيّر . ففكنر قد اعترف بدافعه الاساسي وهو ايجاد المعادلة التي تثبت العلاقة بين الروح والمادة . كما ان ڤوندت لم يشمئز من كتابة بعض المؤلفات حول الماورائيات .

اما بالنسبة لنتائج هذه المرحلة ، فلم تكن سيئة . الا انها تعلَّقت بفيزيولوجيا الحواس ، ويمكن ، حتى يومنا هذا ، ان نجد اسماء فكنر وهلمهولتز وڤوندت والكثيرين من معاصريهم في كتب الفيزيولوجيا . لكن لا بُدّ من الاعتراف ان فيزيولوجيا الحياة النفسية - في المعنى الدقيق للعبارة - لم تبلغ حتى نهاية القرن الماضي المستوى المُقنع .

ويلخصّ بول فريس Paul Fraisse (1) هذه المرحلة على النحو التالي :

« لقد بقي كل القرن التاسع عشر اميناً للارشاد الديكارتي القائل بشكل مزدوج للمعرفة . فظلّ القرن التاسع عشر يميّز بين تجربة مباشرة ـ وهي التجربة الداخلية ـ وتجربة غير مباشرة ـ وهي التجربة الخارجية . فقد حافظ مان دي بيران Maine de Biran والانتقائيون ، وبرغسون Bergson، وڤوندت ، وويليام جايمس William James على الثنائية كقاعدة لمعرفتنا وحتى لسلوكنا .

« على كل حال ، لا يتكلّم علماء النفس في القرن التاسع عشر عن التصرّف ، ولا عن السلوك ولا حتى عن النشاط . انما يميّزون من جهه بين الوعي حيث نجد الادراكات ، والافكار والمشاعر ، والدوافع ، والحركات من جهة اخرى . حتى ان القرن التاسع عشر حافظ على مصطلحات ديكارت .

« فحتى في علم النفس التجريبي لڤوندت ، ثمة مركز للحياه النفسية نعرفه بالتجربة المباشرة . ويدرسه ڤوندت اما بطريقة الانطباع : اي ما يؤثر على المركز ؛ اما بطريقة التعبير : ما يصدر عن المركز . ويؤدي دائماً هذا النمط من التحليل الى وجود ثنائية بين واقعين » .

وكتب ج . بوليتزر : « ان كل النظريات النفسانية « العلمية » التى تعاقبت منذ ڤوندت ليست سوى تنكّرات لعلم النفس

(1) Le Comportement, P. U. F, 1968, P. 16

التقليدي . . . وظهور علم النفس التجريبي لا يمثل انتصاراً جديداً للروح العلمية ، بل اذلالاً لها . ولم تؤدِّ خمسون سنة من علم النفس « العلمي » الا الى التأكيد ان علم النفس العلمي سوف يبرز الى الوجود » .

اخيراً ، كان بوليتزر يلاحظ بسخرية ان « النفساني يتصرّف بغباء تجاه الانسان مثلما يتصرّف آخر الجاهلين . والغريب في الامر ان علمه لا يفيده حين يكون تجاه موضوع هذا العلم . فلا يفيده هذا العلم الا حين يتواجد مع زملاء له . فحالة النفساني مشابهة لحالة الفيزيائي المدرسي : علمه ليس سوى علم مناقشة ؛ انه فنّ جدال » .

علم النفس كعلم للسلوك

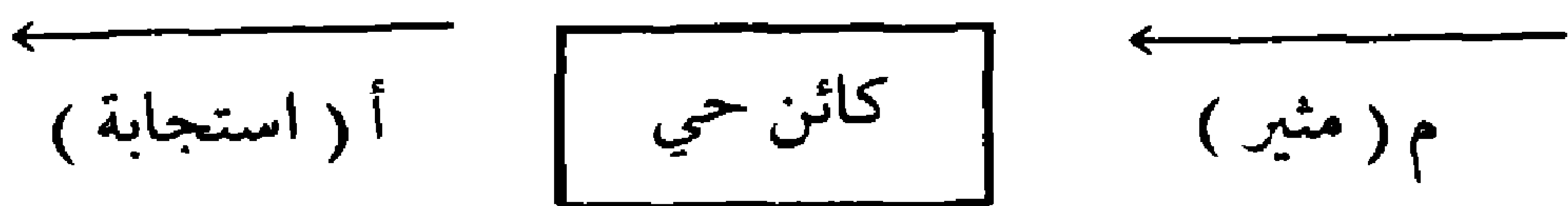
بعد موت الروح ، موت الوعي

ستشهد بداية القرن العشرين تحرّراً مفاجئاً من الثنائية الضمنية لعلم النفس كعلم للحياة النفسية او لوقائع الوعي . وقد أمكن نعت هذا الانقطاع بالثورية او بازدواجية البؤرة . فكما يشير زازوZazzo ، تم القضاء على الوعي ـ ويا للصدفة الغريبة ـ في السنة نفسها(1913) ، وذلك في المجال النفساني ـ بالبيان السلوكي الذي اصدره جـ . ب . واطسونJ. B. Watson ـ وفي المجال الفلسفي ـ بالبيان الظواهري لهوسرلHusserl ـ وسوف لن نهتم هنا الا بالثورة السلوكية . وقد اندلعت هذه الثورة إثر المقالة التي أصدرها واطسون حول « علم النفس كما يراه سلوكي » حيث يشير المؤلف الى استحالة اقامة علم نفس يكون علماً لوقائع الوعي . ويعلن واطسون في هذه المقالة أن السلوك الملاحظ وحده يمكن أن يشكّل موضوعاً لدراسة علمية . وليس من غريب الأمور

أن يفضح الكاتب فشل الاستبطان . ذلك أن واطسون كان أستاذ مادة علم نفس الحيوان . فكيف يمكن دراسة وقائع الوعي الخاصة بالجُرذ ؟ إن تفسير نشاطات الحيوان استناداً الى الحياة النفسية يستدعي ذاتية الملاحظ ، أي الكائن البشري . كما يكون هذا اللجوء مفقراً للبحث لأنه يوفر تفسيرات سهلة ولكنها وهمية . ونحن هنا إزاء إدانة « للانسوية » ، وهي الفخ الحاضر أبداً والمنصوب دائماً للمجرِّب . إلا أن هذه الملاحظات التي يمكن تقبلها بسهولة في مجال علم النفس الحيواني سوف تكتسب قيمة عامة لتشمل كل الجنس البشري : فدراسة الطفل الصغير تطرح مشاكل قريبة جداً من تلك التي تطرحها الحيوانات ؛ كما يصعب أيضاً رسم الحدود بين الطفل والرشد .

وهكذا يكون على علم النفس بمجمله ان يُبنى انطلاقاً من العناصر الملاحظة والموضوعية ، وانطلاقاً من هذه العناصر وحدها ، اي : المثيرات والاستجابات .

لذلك أُطلق على هذه النظرية النفسانية اسم « علم نفس المثير والاستجابة » . ويمكن ان نرمز الى هذه النظرية بالرسمة التالية :



كما نستطيع ايضاً ان نعبّر عن هذه النظرية بالمعادلة التالية :

أ = د (م) ؛ الاستجابة دالة للمثير . ولا تنفي هذه النظرية وجود كائن حي بين المثير والاستجابة . الا انها ترى انه يجب اعتبار هذا الكائن الحي بمثابة « علبة سوداء » يدرس علماء الإحياء شراحتها

وفيزيولوجيتها . ويجب ـ حسب هذه النظـرية ـ التحفـظ من المبـادىء التفســيرية ذات النمــط الذهنــي « كالوعــي » ، « والافــكار » ، « والمشاعر » . . . الخ . والمادة الوحيدة التي تتوفر للنفساني تتشكّل من « استجابات » الكائن الحي في وضعية ؛ فيكمن هدف النفسانـي في وصف القوانين التي تربط الوضعية بالاستجابات ، وذلك ببناء النماذج ، وبالاحرى النماذج الرياضية .

اطار الثورة السلوكية

من الخطأ ـ والظلم ـ جعل القارىء يعتقد ان واطسون وحده كان باعث « النظرية الجديدة » ومخترعها في علم النفس كان واطسون، الى حدّ ما ، مبشرٍ هذه النظرية ، وذلك بفضل شخصيته القوية والمتحدّية (وبفضل « توبيخه الاستثنائـي » ايضـاً ، كما يقـول زازو) . الا ان تطوّر العلم والفلسفة والمجتمع الغربي قد خلق ميداناً مناسباً ، فكان لا بد من بروز مثل هذا التوجّه .

ذكرنا آنفـاً بروز الظواهـرية في تلك المرحلـة . كما كان فلاسفـة آخرون ـ كويليام جايمس مثلاً ـ يكتبون (1812) : « . . . آن الاوان لنفي الوعي صراحة وعلناً » . فالمناخ الاجتماعي لبداية هذا القرن المتميّز بدينامية الرأسمالية المزدهرة في الولايات المتحدة ، وبولادة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي قد اتسّم بالتناقض الداخلي للبنى التي خلّفها القرن التاسع عشر . كما اتّسم ايضاً بالنسبة للعلميين والمثقفين بتفاؤل كبير ازاء الامكانيات التي وفرّتهـا للانسـانية الانجـازات التكنولـوجية . الا ان الدوافع في البلدين كانت مختلفة ، لا بل متناقضة : ففي امريكا ، النظر الى الانسان كموضوع دون وعي ـ وحيث لا يهم الا السلوك الخاضـع

لمثيرات محكمّة بشكل مناسب ـ يتلاءم تماماً مع رغبات الاستغلال الرأسمالي . اما بالنسبة للعلماء التقدّميين ، فكان يهمّهم التأكيد على اكتشافات المادية الجدلية وملاحقة الوعي وآثاره المثالية . وتنفي الموضوعاتية الجذرية في العشرينات من هذا القرن الوعي وتعتبره بمثابة التنكرّ الاخير للروح واللاهوت . . . فعلى البحث العلمي ان يتناول كل المواضيع . ومن الاكيد ان ستشينوف Sectchenov ، وباڤلوف Pavlov وبييرون Pieron ، وفرويد Freud ـ بعد كلود برنار Claude Bernard وداروين Darwin ـ كانوا من المتأثرين بالمذهب المادي . الواقع ان الاثنين ـ اي باڤلوف وبييرون وهما من معاصري واطسون ـ قد عبّرا في آن معاً عن وجهات نظر متقاربة للغاية .

عام 1907 ، اعلن بييرون في محاضرة افتتاحية القاها في معهد الدراسات العليا في فرنسا بما يلي : « من الضروري تجاهل الوعي في الابحاث حول الحياة النفسية للكائنات الحية . وسوف تتناول الدراسات نشاط الكائنات وعلاقاتها الحسية ـ الحركية بالوسط ، اي ما يسميه الاميركيون « The behavior » والالمان «das verhalten» والايطاليون «il comportamento» ، وما نسميّه نحن ـ عن حق ـ تصرّف الكائنات الحية !!

اما بالنسبة للفيزيولوجي الروسي باڤلوف ، فقد ارتبطت نزعته المعروفة ضد التفسيرات النفسانية باكتشافه للمنعكسات الشرطية . وخلال قيامه بابحاث حول فيزيولوجية الغدد الهضمية ، لاحظ باڤلوف ان لعاب الكلاب الخاضعة للتجريب كان يسيل في لحظات لم تتنذّر بها الخطة التجريبية . وفي حين كان احد معاوني باڤلوف يقترح تفسير هذه « المنعكسات النفسية » بظواهر ذهنية ، كان باڤلوف يقرّر إبعاد كل

رجوع الى الحياة النفسية والوعي . وكان يوجّه مختبره نحو العلمية للمنعكسات الشرطية ، هذه المنعكسات التي سوف يـ قوانينها وطرق دراستها . واصبح المنعكس الشرطي مبدأً اساسياً وتفسيرياً للسلوك .وتبنّى واطسون دون اي تردّد اكتشافات باڤلوف التي كانت تتلاءم تماماً مع نظرياته .

لكن هذه المرحلة الثانية من علم النفس تتسّم ايضاً باتجاهين رئيسيين اخريين سوف يؤديان بطريقة عفوية وغير مباشرة الى دعم الموقف السلوكي . عنينا بذلك القياس النفسي والتحليل النفسي .

القياس النفسي

هكذا تُسمّى طريقة الروائز النفسية . ويُفضَّل الآن ، حسب وجهات نظر المستعملين ، اللجوء الى عبارات مثل : تقنيات نفسية ، علم نفس فارقي ، او فحص نفساني مسلّح . الا ان لعبارة « قياس نفسي » ، وإن لم تكن صالحة للاشارة الى مجمل طرق الروائز ، فضل اساسي : ذلك ان هذه العبارة تشير الى إدخال القياس في الفحص النفساني .

وقد برز القياس النفسي الى الوجود في بداية هذا القرن ، فعاصر لحركة السلوكية ، وكان ـ جزئياً ـ محكوماً بالمقتضيات نفسها . إلا أن باحثين مختلفين قد ساهموا في انبعاثه . فلم ينشأ القياس النفسي في المختبرات بل تحت ضغط الطلب الصادر عن المؤسسات الصناعية والعسكرية والعيادية والتربوية . فقد طرحت المؤسسات الصناعية والعسكرية السؤال التالي : كيف يمكن انتقاء عدد كبير من الافراد وتوجيههم بشكل سريع وفعّال ؟ اما بالنسبة للمؤسسات التربوية ، فكان السؤال : كيف

نوجّه الافراد ، كيف نكتشف قدراتهم ونقاط ضعفهم ؟ كيف نحدّد لهم طريقة تربوية خاصة ؟ اما السؤال العيادي فكان : كيف يمكن تقييم مختلف عوامل الشخصية ؟ كيف نقيس التدهور العقلي ؟ وكيف يمكن تحديد التشخيص الفارقي بموضوعية ؟ وطريقة الروائز (وقد اقترح الاميركي كاتل Cattell هذه العبارة عام 1890) هي التي تسمح بالاجابة على كل هذه الاسئلة . والرائز العقلي هو « اختبار محدّد يتضمّن مهمّة يكون على الفرد انجازها ، وتكون مماثلة لكل المفحوصين؟ كما تُستعمل تقنية محدّدة لتقدير النجاح او الفشل ، او لاعطاء علامة للنجاح » (1933 ، الرابطة الدولية للتقنيات النفسية) . وهناك تحديد آخر يعتبر ان الرائز هو « وضعية تجريبية مقنّنة تكون بمثابة مثير لسلوك . ويُقيَّم هذا السلوك بمقارنة احصائية بسلوك افراد آخرين وُضعوا في الوضعية نفسها ، ممّا يسمح بتصنيف الفرد المفحوص كميّاً او نوعياً » (بيشو Pichot، 1949) .

وتبرز هكذا مقولتان اساسيتان : الاختبار المقنّن ، وامكانية تقييم النتائج بمقارنتها بعينة مرجعية (فنقول حينئذ ان الاختبار مقنّن) . وقد سهّل تقدّم الاحصاء هذه المقارنة ، كما ادّى ، بفضل تطوّر الرياضيات والتحليل العاملي ، الى اكتشافات نظرية تتجاوز الطموحات ذات الاهداف التطبيقية التي برزت في البداية .

ويُنسب عادة الى الفرد بينيه Alfred Binet (1857 - 1911) فضل تعميم هذه الطريقة ، ذلك أن بينيه قد أنجز أوّل رائز أُمكِن استعماله عملياً . وعام 1904 ، كُلِّفت لجنة وزارية « بدراسة التدابير اللازم اتخاذها لتأمين حق التعليم للاطفال اللا أسوياء » . وتمنّت اللجنة « عدم طرد أي طفل متّهم بالتخلّف من المدارس العادية ، وعدم قبوله في

مدرسة خاصة قبل خضوعه لفحص تربوي وطبّي يثبت أن حالته الذهنية لا تؤهله للافادة من التعليم الذي يُعطى في المدارس العادية » . وقد اقترح الفرد بينيه ـ الذي كان يحتل آنذاك مركز مدير مختبر علم النفس في السوربون ـ مع سيمون Simon « سلماً قياسياً للذكاء » يسمح بالفحص الذهني الموضوعي والسهل للاطفال .

ويقتضي هذا الرائز اخضاع الأطفال ـ تبعاً لمخطّط يحدّد سلفاً ـ لسلسلة من الأسئلة القصيرة ، والمتنوّعة ، والقريبة من الوضعيات اليومية . وقد جُمعت هذه الأسئلة حسب أعمار الأطفال .

مثلاً : السنة الرابعة : مقارنة وزنين : تكرار ثلاثة اعداد : تكرار جمل تتألف كل منها من عشرة مقاطع لفظية : لعبة الصبر : التحديد الاجرائي : نقل مربّع .

السنة الخامسة : مقارنة جمالية : عدّ اربعة قروش : تسمية اربعة الوان : تنفيذ ثلاثة مهام : التمييز بين الصباح والمساء . . . ويمتد السلّم من عمر ثلاث سنوات الى اثني عشرة سنة . ويُعتبر الطفل راشداً على المستوى العقلي بعد تجاوزه لهذا العمر .

ويحدِّد هذا الاختبار « العمر العقلي » للطفل . وتسمح مقارنة « العمر العقلي » هذا « بالعمر الزمني » بتكميم التأخر العقلي المحتمل . ذلك انه ، من الناحية المبدئية ، على العمر العقلي ان يكون مساوياً للعمر الحقيقي . وعلى الصعيد التطبيقي تتم مقارنة العمر العقلي الذي احتُسِبَ بهذه الطريقة ـ مع العمر الزمني تبعاً للنسبة التالية :

$$100 \times \frac{\text{عمر عقلي (بالاشهر)}}{\text{عمر زمني (بالاشهر)}}$$

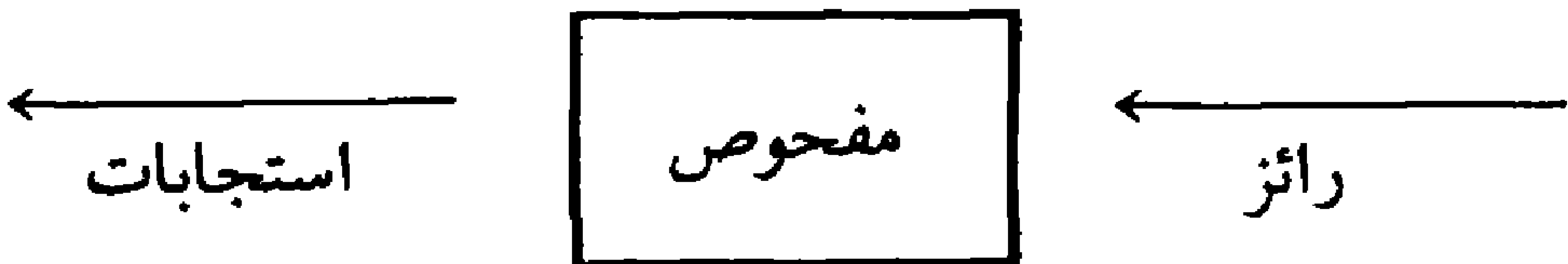
وتُعـرف هذه النسبـة باسـم الحاصـل العقلي (Quotient intellectuel) Q . I

وقد خَضعت هذه المقولات لانتقادات عدة ليس بقدرتنا ان نعرضها باسهاب الآن . فندعو القارىء الراغب بالمزيد العودة الى ابحاث رينه زازو .

الا ان المسألة الاكثر دقة تتعلّق بالمستوى العقلي للراشد . فالكفاية العقلية ـ كما رأينا ـ لا تتطوّر بعد بلوغ الفرد12 — 13 عاماً . وبما ان العمر العقلي للمتخلّف يبقى ثابتاً في حين ينمو عمره الزمني ، سيؤدي ذلك الى تخفيض حاصله العقلي بفعل تحايل الحساب . ولهذا السبب بالذات ، وضع الاميركي وكسلر WECHSLER اختبارات خاصة للمراهقين والراشدين . وهي اختبارات تتضمّن نظاماً لوضع العلامات لا يلجأ الى العمر العقلي . وبالاضافة الى ذلك ، يسمح هذا النظام ، الذي نوّع الاختبارات ، بالتقدير الكيفي للكفاية ولعجزها المحتمل المرتبط بالامراض او الهرم (التدهور العقلي)

لم يعد من الممكن الاسهال في الالحاح على هذه الامثلة . وربما كان هذا الشرح كافياً كي يُدرك القارىء ان الروائز التي يستعملها النفسانيون بكثرة تتضمّن نموذج « علم نفس المثير والاستجابة » . ويوضّح تحديد بيشو هذه العلاقة باستعماله لعبارة « مثير وسلوك » .

ويمكن رسم وضعية الرائز على النحو التالي :



ويكون التشابه كاملاً مع النموذج السلوكي ، وان تضمن التقرير النفساني - في حالة تطبيق روائز الشخصية والروائز الاسقاطية - عبارات بعيدة كل البعد عن المصطلحات السلوكية فالوضعية ، والنموذج الضمني ، لا يتغيّران : اخضاع المفحوص لمثير مقنّن بهدف الحصول على استجابات سيتم مقارنتها باستجابات المجموعة السكانية المرجعية . ويبقى الملاحِظ حيادياً . لذلك لم نذكره في الرسمة .

التحليل النفسي

سيساهم التحليل النفسي الذي عاصر السلوكية في خلق مناخ مناسب لظهور المرحلة الثانية في تاريخ علم النفس . قد يبدو هذا القول مفارقاً للوهلة الاولى ، ذلك ان التحليل النفسي قد اشتهر بالاهتمام بهذه الذاتية التي شنّع بها السلوكيون . صحيح ان العلاقات المتبادلة بين السلوكيين والمحلّلين النفسانيين قد تلوّثت بالاحتقار وعدم التفهّم . الا ان الامر يستحق ابداء بعض الملاحظات . فالتحليل النفسي قد ابتكر من قبل س . فرويد (1856 - 1939) ، وهو طبيب امراض عصبية ذو نزعة علمية! ابدى حذراً شديداً تجاه الميول الفلسفية التي اتّسم بها علم النفس في عصره . ومن المهم جداً ان يحمل احد ابحاثه النظرية الاولى (1895) - وهو بحث لم يكتمل - عنوان « مشروع علم نفس علمي » . والتذكير ببعض المراحل من حياة فرويد سيوضّح هذه المسألة .

اتّسمت الدراسات الطبّية التي قام بها فرويد باهتمامه الشديد بعلم الإحياء ، وخاصة بالنظريات الشراحية والفيزيولوجية الشائعة في عصره . وحين كان لا يزال طالباً شاباً حصل على منحة دراسية ، وانجر

اوّل بحث علمي له في مختبر الشراحة المقارنة حول بنية خلايا الخصيات المفترضة لدى الانقليس . ثم دخل فرويد الى مختبر الفيزيولوجيا الذي كان يديره أرنست بروك Ernest Brucke . وكان هذا المختبر ينتمي الى الحركة العلمية التي ضمّت دي - بوا ريمون Du-Bois Reymond ، وبروك Brucke ، وهلمهولتز Helmholtz ، ولودفيغ Ludwig . أما برنامج هذه الحركة فكان يهدف الى القضاء على المذهب الاحيائي ، وإلى فرض الحقيقة القائلة أن القوى الفيزيائية والكيميائية وحدها تفعل في الكائن الحي . وفي هذا المناخ ، قام فرويد بأبحاثه حول الشراحة المجهرية للجهاز العصبي ونشر مقالات حول الجهاز العصبي لدى الشِلق (1878) والسرطان (1882) .

وبعد حيازته لشهادة الطب عام 1881 ، لم يمارس فرويد مهنة الطب ، بل تابع عمله في المختبر آملاً ان يصبح استاذاً في الفيزيولوجيا . الا ان وضعه لم يكن ثابتاً . ففرويد لم يكن صاحب ثروة : فاضطر ، والغصّة في نفسه - كما يقول مؤرخ حياته ارنست جونز Ernest Jones - ان يمارس الطب ، مستجيباً في ذلك لنصائح بروك . فترك الابحاث المخبرية لممارسة الطب . الا ان ابحاثه الاولى حول الخلايا العصبية قد سمحت له عام 1885 ان يصبح استاذاً في علم الاعصاب المرضي . فتخصّص حينئذ في الطب العقلي للاعصاب ونشر عام 1891 ابحاثاً مهمة حول الحبسة والشلل الطفلي بعد تتلمذه على ايدي مينير Meynert وتدرّجه عند شاركو CHarcot وبرنهايم Bernheim . وبدأ فرويد عمله كطبيب عام 1886 . وفي هذه المرحلة ، برز الى الوجود ما سيصبح فيما بعد التحليل النفسي . فاصدر كتاب « دراسات حول الهستيريا » (1895) و « علم الاحلام »

(1899) . وتميّزت هذه المرحلــة بتعــاون حميم وودّي مع بروير Breuer . هذا الاخير هو من تلامذة العالـم الفيزيولوجـي هيرنـغ Hering . وقد اصبح طبيباً مشهوراً في فيينا حوالي عام1890 . وقد ساهم بروير في وضع « الطريقة التفريجية » او « العلاج بالـكلام » ، وهو العلاج الذي مهّد الطريق للتحليل النفسي (وقد استُعمِلـت هذه العبارة للمرة الاولى عام1896)

وإذا كنّا نعتقد أنه من المفيد التذكير بكل هذه الوقائع التي لخصّناها[1] فذلـك لابـراز الفكـرة القائلة ان فرويد كان قد بلغ الاربعين من العمر حين باشر رسمياً بنتاجه التحليلي النفسي . وعليه ، لا تكون النظرية التحليلية نتاج شباب ، بل نتيجة لنضج طويل بلغه رجل علم لم يحتك الا في مرحلة متأخرة نسبياً بالمسائل العيادية في الطب العقلي . ولا يمكن التقليل من شأن ثقافة فرويد الإحيائية والعصبية ، وإن طغت مؤلفاته التحليلية على ابحاثه الاولى في هذا المجـال . كما يُنسى غالبـاً ان هذا التوجّه الاولي قد اثر بقـوة على كاتـب « النظـرية التحليلية الشاملـة » Métapsychologie .

من المفيد ان نعود فيما بعد الى الاكتشافات الفرويدية . وعلى وجه الخصوص - الى مساهمتها في بناء المرحلة الثالثة من علم النفس . وفي بداية هذا القرن . كان يمكن التمييز بين ثلاثة افكار رئيسية في النظرية التحليلية .

---

(1) سيجد القارىء الفضولي فائـدة كبـيرة في قراءة كتـاب : JONES: La vie et l'œuvre de Sigmund Freud , P.U.F. .

1 ـ يكون كل نشاط وكل كلمة انسانية محكومين وخاضعين لحتمية صارمة يُقتضى تحليلها .

2 ـ لكل نشاط ولكل كلمة انسانية وظيفة في توازن Homéostasie(1) الكائن الحي . ويمكن تطبيق مبدأ التوازن ـ وهو في الأصل مبدأ فيزيولوجي ـ في مجال الحياة الذهنية .

3 ـ الا ان الاستبطان الفردي عاجز عن تحليل هذه الوقائع ، لان « الوعي » الفردي لا يدرك سوى تمثلاً محدوداً من النزوات الداخلية . والقسم الاكبر والمكبوت لا يُمكن ان يُدرَك الا بابرازات غير مباشرة لا يَفهم فاعلها معناها . لقد اكتشف فرويد ان للانتاجات الاكثر لا عقلانية ظاهرياً (كالاحلام ، والافعال المغلوطة ، والزلات ، والنسيان) اسبابها الكامنة . ومن نافلة القول ان اكتشاف اللاوعي ـ وهو في اساس التحليل النفسي ـ قد الغى علم النفس السابق ، اي علم نفس « وقائع الوعي » : كما قضى ايضاً على الطريقة الاستبطانية . وهذا تفسير وفضحٌ لافلاس علم النفس الكلاسيكي ، هذا العلم الذي كان فرويد يجهله تقريباً .

مستقبل السلوكية

«ان النفي الجذري لعلم النفس الكلاسيكي ، الاستبطاني او التجريبي ، الذي نجده في سلوكية واطسون ، هو اكتشاف مهم » . ان السلوكية المنطقية مع نفسها ، اي سلوكية واطسون ، تعترف

---

(1) نسق تنظيم للكائنات الحية يسمح لها بالمحافظة على ثبات الشروط الحياتية ؛ كما يسمح لها باعادة الثبات حيث تتحوّل الشروط الحياتية .

بافلاس علم النفس الموضوعي الكلاسيكي ، وتجلب ، بفكرة السلوك ، مهما كان التفسير الذي نعطيه لهذه الفكرة ، تحديداً ملموساً للواقع النفسي » . هكذا كان يكتب بوليتزر . ولكن يظهر بوضوح ان الكثير من المواقف العقائدية التي اتخذها واطسون كانت مواقف دوغماتية ومتميّزة ، وتبسيطية . كما لم تكن هذه المواقف ضرورية لتبرير اسهام واطسون الاساسي اي : كل ما يمكن معرفته عن « نفسية » كائن حي يرتكز الى ما نعلمه عن سلوكه . ونفهم حينئذ لماذا قام خلفة واطسون بتوسيع مفاهيمه ، وتصحيحها واغنائها . مما ادّى الى نمو عدة مدارس سلوكية ويمكن القول ان علم النفس الاميركي (او علم النفس « الغربي » في شكله « العلمي » او « التجريبي ») يمتّ في الوقت الحاضر ـ الى حدّ ما ـ الى علم نفس المثير والاستجابة .

ونشير الى بعض الاتجاهات الرئيسية :

ان سيكولوجية الجهاز العصبي التي مثّلها لاشلي Lashley في الاصل قد تحرّرت من لا فيزيولوجية * السلوكية البدائية . هناك ، بكل تأكيد « علبة سوداء » بين المثير والاستجابة . ولكنها ليست موضوعاً محرّماً . وقد يكون من المفيد تحديد السياقات التي تجري في داخلها .

ان التقدّم التقني للفيزيولوجيا الكهربائية وتجسيم الحركة قد سمح بوصف العلاقات الدينامية لمختلف البنى التي تتدخل في السلوك الغرائزي (تحت المِهاد) ، والسلوك العاطفي (انف الدماغ) ، والنشاط المعرفي (القشرة الدماغية) . كما ابرز هذا التقدّم اهمية البنى الشبكية ، والقشرة الترابطية . بالاضافة الى ذلك ، قدّم القياس الاحيائي المسافي امكانيات جديدة للابحاث التي تتناول فيزيولوجية

الجهاز العصبي في السلوك . اذ يسمح القياس الإحيائي المسافي ـ بعد وضع جهاز باث صغير ومتْرنز على الحيوان ـ بالتسجيل المسافي لتخطيط الدماغ الكهربائي ولتخطيط القلب الكهربائي . وهكذا يُترك الحيوان طليقاً في حركاته ، فيستطيع القيام بمختلف النشاطات بشكل عادي ، كما يمكن ايضاً ، وباتجاه معاكس ، ان يرسل المجرّب للحيوان اثارة كهربائية ستثير ، بفضل الكترودات مغروزة في منطقة معيّنة من الدماغ ، هذا المركز العصبي او ذاك ؛ مما يولّد سلوكاً معيناً او يعدّل السلوك القائم . كما يمكن للمجرِّب بهذه الطريقة ، وعلى خاطره ، احداث التصرفات العدوانية او صدّها ، والإخلال بالتنظيم التراتبي كما فعل دلغادو Delgado في ابحاثه حول الرئيسات . وندرك بوضوح الآفاق الذي يفتحها هذا الضبط المسافي للسلوك . الا اننا سنعود لاحقاً الى مسألة العلاقات بين الفيزيولوجيا وعلم النفس .

الاجرائية

انتقد الاميركي تولمان Tolman النموذج المختصر للغاية لعلم النفس ـ كعلم للسلوك ـ كما عبّر عنه واطسون . فقد بدا له ـ كما بدا لآخرين ولواطسون نفسه دون شك ـ ان بين المثير والاستجابة ثمة سياقات مهمّة ، ذات طبيعة معرفية ، وعاطفية او دافعية . لذلك لا بد لكل تعبير عن السلوك ان يأخذ بعين الاعتبار ثلاثة انماط من المتغيّرات المستقلّة التي يضبطها المجرّب (الوضعية او المثير) والمتغيّرات التابعة (الاستجابات الملاحظة) . وبين نمطي المتغيّرات هذه ، هناك المتغيّرات الوسيطة التي يُطلق عليها احياناً اسم « الكائن الحي » . « والذات » ، او ـ وقد برزت هذه العبارة خلال السنوات الاخيرة ـ « الشخصية » .

(فريس ، 1963)[1] .

وكان هول Hull (1943) اوّل من قام بابحاث معمّقة لصياغة هذه المتغيّرات الوسيطة على شكل « بناء فرضي » يسمح ببناء فرضية والتحقّق منها تجريبياً . هذه هي « الطريقة الافتراضية ـ الاستدلالية » التي تصب في الابحاث الحالية حول النماذج الرياضية في علم النفس . وقد خصّص هول ـ من جهته ـ ابحاثه لصياغة قوانين التعلّم .

لاعطاء صورة كاملة عن علم نفس المثير والاستجابة في المرحلة الحاضرة . لا بدّ من ذكر باحثين عديدين ، ومن بينهم سكينر Skinner . وهو من السلوكيين المعاصرين ، وقد اشتهر بابحاثه حول النمط الثاني من التشريط المعروف باسم « التشريط الاجرائي » وبالتقنيات التجريبية التي وضعها لدراسة هذا النوع من التشريط. كما اشتهر ايضاً بالنتائج النظرية والتطبيقية التي توصّل اليها بالنسبة لمسائل اللغة الانسانية وطرق التعليم المبْرمج .

نعود فنقول انه من المستحيل ، في هذا الفصل الصغير ، ان نعطي فكرة قيّمة عن العدد الكبير من الباحثين في هذا المجال ، وعن تنوع ابحاثهم المستوحاة من الاتجاه السلوكي . وخاصة ان الانتقائية والبراغماتية الاميركيتين قد سمحتا بعدة نقاط التقاء مع مدارس اخرى كما ساهمتا في تطوّر مختلف الاختصاصات .

---

(1) للمزيد من التفاصيل ، يمكن الرجوع الى العدد 9-13 من « مجلة علم النفس » Bulletin de prycholoyie, 1968-69 الذي خُصّص للطريقة التجريبية في علم النفس والى « نشرة رابطة علماء النفس العلميين الناطقين باللغة الفرنسية » (Le comportement, P. U. F 1968) . سيلاحظ القارىء ميلاً واضحاً الى ادخال نظرية نفسانية « شخصانية » والى اعادة الاعتبار للوعي من خلال تحريف مفهوم « المتغيّرات الوسيطة » .

وهكذا نجد وجهات نظر سلوكية في الالسنية ، وعلم الانام ، والعلاج النفسي ، والتربية ... الخ . وهي وجهات نظر لا محل لطرحها في هذا المجال .

علم النفس كعلم للاتصالات الداخلية وللاتصالات بين الكائنات الحية

اعتبر بوليتزر اسهام النظرية السلوكية اسهاماً اساسياً . الا انه كان يشير في الوقت نفسه الى ان « السلوكية تراوح مكانها » كما كان يأخذ عليها عجزها عن تقديم اسس لعلم النفس عياني « كما اراده هو : اي علم « لحياة الانسان المأسوية » . في حين كان يرى نواة هذا العلم في التحليل النفسي .

والواقع انه بعد انقضاء اربعين سنة ، انبنت صورة علم النفس على النحو التالي :

جَمَعَ علم نفس المثير والاستجابة وعلم النفس التجريبي عدداً كبيراً من الابحاث . الا انهما بقيا على مستوى النظريات والأبحاث . ولا يسمحان بالتالي للاخصائيين بتفسير سلوك انساني عياني وفهمه .

في موازاة هذين الاتجاهين ، برز القياس النفسي ـ او « علم الروائز » ـ الذي يستند ايضاً الى نموذج المثير والاستجابة ، مع الاشارة الى ان نتائجه كانت اكثر فائدة على الصعيد التطبيقي . ويؤدي القياس النفسي الى قياس مقارن للكفاية (المستوى العقلي ، التدهور ، التصنيف حسب سلّم القدرات) غالباً ما يكون مفيداً وفعالاً دون

شك : الا ان فائدتـه تبقـى محـدودة وخصـوصية ، كما تُنعـت غالبـاً بالتجـريبية . امـا في حالـة تطبيق الروائـز الاسقـاطية او روائـز « الشخصية » ، فيؤدي القياس النفسي الى نتائج تدخل في علاقة تنافس وإطناب مع الفحص النفساني المنجَز بشكل جيّد . والواضح انه كلما اكتسب العياديون المزيد من الخبرة ، قلّ شعورهم بضرورة استعمال الروائـز التـي يرون فيهـا حمـاية ادوية غـير مفيدة تفصـل بينهم وبين المفحوص .

* الا ان هذه الخبرة العيادية « ترتبط غالباً بتكوين تحليلي او « شبـه تحليلي » ، او بالاحـرى « دينـاميكي » للنفسانـي . ويشـكّل التحليل النفسي ، كما تنذّر بذلك بنبوغ بوليتزر ، المنظومة المتماسكة الوحيدة التي تسمح بممارسة علم نفس عياني .

لكن المفارقة تبرز حينئذ :

يُحضرً العلم النفساني في بوتقات المختبرات ومنشورات الباحثين ، ولكنه لا يفيد في شيء على صعيد الممارسة ، لدرجة ان عدداً من المحلّلين النفسيين يعتقـدون انـه اذا كانـت الثقافـة الجـامعية ضرورية لممارسة التحليل النفسي ، فليس من الضروري ان تكون هذه الثقافة مرتبطة بعلم النفس او الطب العقلي .

وفي المقابل ، يشكّل العلاج التحليلي والنظرية التحليلية نوعاً من مثال للانا بالنسبة للنفساني المتمرّس في حين يُعلن المحلّلون النفسيون انه لا يمكن اختزال التحليل النفسي الى اي اختصاص آخر وانه لا يمتّ الى علم النفس بصلة . اما العلميون ، فيؤكدون ان التحليل النفسي ليس علمياً .

ان المرحلة المعاصرة التي تشهد بلوغ علم نفس المثير والاستجابة ذروة تطوّره تشكو ايضاً ، اكثر من اي وقت مضى ، من الفجوة الموجودة بين النظرية والتطبيق . فهناك من جهة ، مجموعة من النظريات العامة وتراكم للمعارف النفس ـ فيزيولوجية والتجريبية ، تقابلها من جهة اخرى ، سلسلة من التقنيات لا تمتّ بصلة ـ الا نادراً ـ بتلك النظريات والمعارف ، وحيث يُعوّض عن غياب التنظير بالتدريب الشخصي » او « بخبرة » النفساني : لدرجة انه من الممكن الى حدّ ما ، ان نتصوّر نفسانياً متمرّساً ممتازاً يكون جاهلاً تماماً لعلم النفس النظري . ومن الاسهل ايضاً ان نتصوّر باحثاً عالماً للغاية ، ويكون في الوقت نفسه عاجزاً عن انجاز فحص نفساني بشكل جيّد . (كي لا نتكلّم عن العلاقة النفس ـ علاجية) . وكما هو الحال في كل مرّة تُطرح فيها مسألة بشكل نقدي ، فإن عناصر الاجابة موجودة . وهي تجعلنا نعتقد انه قد تم تجاوز المرحلة السلوكية لتحل مكانها مرحلة جديدة يتم تحضيرها بنشاط : وهي مرحلة علم النفس كعلم للاتصالات ، او ، كي نكون أكثر ايجازاً ، علم النفس الاتصالي :

وتمد هذه المرحلة جذورها في ميدانين مختلفين في الاصل : ولكنهما تقاربا في تطوّرهما ، وهما :

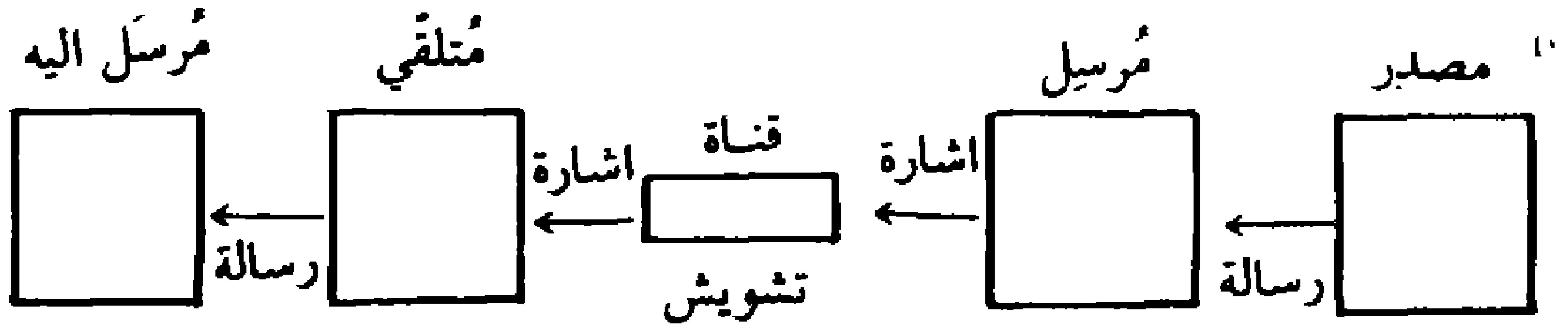
ـ علم الإحياء من جهة ، مع تطوّر علم الوراثة والاتولوجيا .

ـ الالسنية من جهة اخرى ، وهي العلم المموّن بالنماذج والمؤثر على العلوم الانسانية ، والذي يسمح اخيراً بالصياغة الواضحة لمسائل قديمة يهمّ البعض منها علماء النفس بشكل جوهري .

مقولة اوّلية : نموذج نظرية الاتصالات .

ادّى تطوّر نظرية الإعلام والاتصالات ، وتعميق المفاهيم والممارسة التحليلية وتعميمها ، وبروز الالسنية ، الى نبذ النموذج القديم « مثير ـ استجابة » او بالاحرى الى تجاوزه في نموذج اكثر شمولية . ويبدو ان هذا النموذج الجديد ـ الذي لم يتخلّ عن المكتسبات التي حقّقها النموذج القديم خلال سنوات من الممارسة والتطبيق ـ يوضح على نحو افضل وضعية الفحص ، وخاصة بالنسبة للنقطتين التاليتين : يسمح هذا النموذج بموضعة النفساني في موقعه الصحيح كعنصر نشيط في عملية الاتصال : كما يحث على استعمال منهجية جديدة لدراسة ارسالات المتكلمين ، وهي منهجية تتناول هذه الارسالات كرسائل .

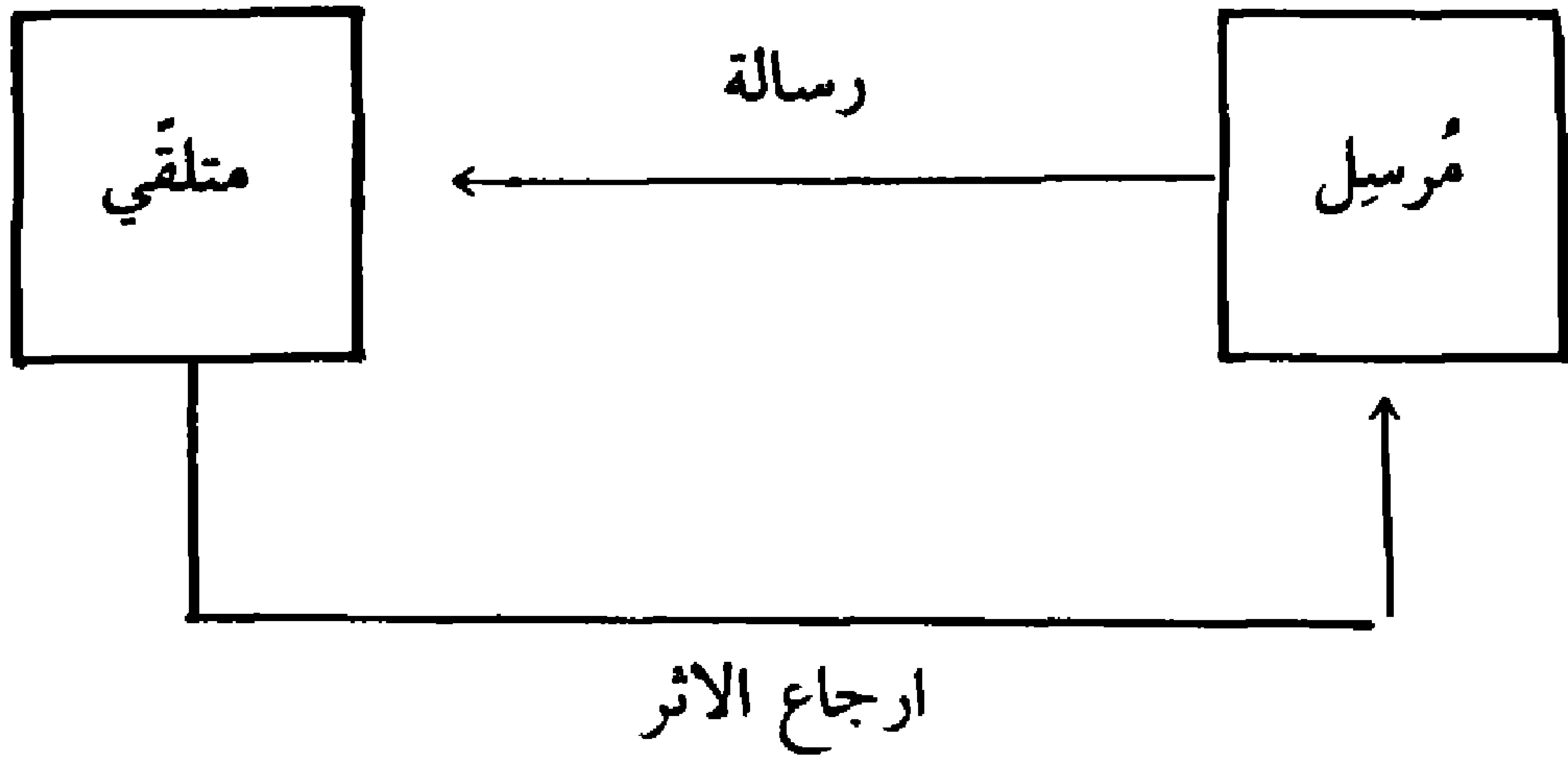
والرسمة الاصلية لشانونSHANNON هي الرسمة التالية :



وكما يقول ويفرWEAWER ، اذا طبّقنا هذه الرسمة على الاتصال الشفهي (وهو الاتصال الذي يحصل في الفحص النفساني) ، نحصل على النتائج التالية : دماغ الفرد المتكلّم هو المصدر . اما اعضاؤه الصوتية ، فهي المُرسِل . ويشكّل الهواء القناة . واذن المستمع هو المُلتقّي في حين يكون دماغ هذا الاخير المُرسَل اليه .

ونلاحظ مباشرة ان « المُرسِل » و« المتلقّي » في هذه الحالة لا يهمّان ،

في مظهرهما الأدوي ، سوى المتخصّصين في علـم الاعضـاء الصـوتية والأذن . كما لا يهم « المصدر » و « المُرسَل اليه » هنا الا الاختصائيين في مرض الاعصاب والاطباء العقليين والنفسانيين . سنبسِّط اذاً الرسمـة الاصلية باستعمالنا للعبارات بشكل مختلف بعض الشيء :



المُرسِل : يشير الى مجمل ما يسمّيه شانون المُرسِل والمصدر .

المتلقّي : مجمل ما يسمّيه شانون المتلقّي والمُرسَل اليه .

الرسالة : تقابل ما يسمّيه شانون اشارة . وللرسالة بنية تولّد لدى المتلقّي استجابة محدّدة فنقول حينئذ ان للرسالة دلالـة . وتُنقَل هذه البنية بسناد يكون تابعاً لقناة الاتصال . مثلاً : التذبذبات الهوائية في حالة الاتصال اللفظي . ويمكن نقل الدلالة نفسها بعدة قنوات . مثلاً : المعلومة التـي تُنقَـل برسالة لفظية يمكن نقلها ايضاً برسالة مكتوبة .

القناة : تسمح بنقل المعلومة من المُرسِـل الى المتلقّـي . وتبعـاً

لطبيعة القناة ، يمكن تحديد بعض الضغوطات . مثلاً : القدرة التي تشير الى كمية المعلومات التي تُنقَل في الثانية الواحدة : الشريط المسجِّل الذي يحدِّد الحدود الفيزيائية الدنيا والعليا حيث يجب موضعة الرسالة .

التشويش: يشير الى كل ظاهرة مشوِّشة تُشوِّه الى حدّ ما الرسالة وتُفسد وضوحها . فعبارة « تشويش » تتَّصف بالشمولية اذاً ، ولا تُطبَّق فقط على الاتصال السمعي : فنقاط المطر التي تُفسد العنوان البريدي تشكِّل هي ايضاً تشويشاً .

نظام :(الاشارات) (الترميز - فك الرموز) : تشير عملية الترميز إلى نشاط المُرسِل الذي يحوِّل « الرسالة الى اشارة » تبعاً لمصطلحات شانون . اما بالنسبة لنا ، فيكون نظام الاشارات ما يسمح للمُرسِل ببناء السناد بطريقة تسمح للمتلقّي الحصول على معلومة محدّدة .

ويتكوّن نظام الاشارات عموماً من قائمة وقواعد تركيبية (نحو) .

الكفاية : تتحدّد كفاية كل من المُرسِل والمتلقّي بسماتهما الفيزيائية او النفس - فيزيولوجية (قنوات وظائفية ، قدرة ، شريط مسجِّل) وبحالتهما المتزامنة (مستوى التيقّظ الدافع) ، وببرامجهما (نظام الاشارات ، النمو ، التأثيرات التعاقبية)

الأداء : تشير الكفاية الى امكانيات كل من المُرسِل والمتلقّي بعد

الاخذ بعين الاعتبار الضغوطات الوراثية والتاريخية . اما الأداء ، فيشير الى المُرسِل والمتلقّي في وظيفتهما . اي انه يشير الى ما يفعلانه .

اخيراً ، سننهي تعليقنا حول هذا النموذج بهاتين الملاحظتين .

- يمكن تطبيق هذا النموذج على الاتصالات الحيوانية ، كما يمكن تطبيقه ايضاً على الاتصالات الانسانية .
- يمكن تطبيق هذا النموذج على كل انماط الاتصال . فالعبارات المستعملة ـ وإن كانت هذه العبارات مبتذلة ـ هي ذات دلالة عامة . وهي تحثنا على تجنّب كل « انسوية » : اذ يمكن للرسالة ان تكون صوتية ، وبصرية ، ولمْسية ، وحتى كيميائية .

ومع ذلك ،لا تتضمن رسمة شانون سوى قناة واحدة كما هو الحال في الاتصال الهاتفي مثلاً . لكن الاتصالات « وجهاً لوجه » تكون دائماً متعدّدة القنوات .

ويقترح ن . ن . ماركل N . N . MARKEL التمييز بين ست قنوات رئيسية في الاتصال الانساني وجهاً لوجه .

المصدر	القناة	المَصَبّ
اعضاء صوتية	خطاب	أذن
حركات الجسم	حركية	عين
ظواهر كيميائية	رائحة	أنف
مساحة جسمية	لمس	جلد
مساحة جسمية	ملاحظة	عين
وضعية الجسم	تنظيم المجال	عين

الاتولوجيا

يمكن القول ان الاتولوجيا هي الشكل الحديث لعلم النفس الحيواني او ، بالاحرى ، لعلم النفس المقارن كما يفهمه الكتّاب الانكليز . الا ان هذا القول قد يكون خاطئاً ولن يلقَ موافقة علماء نفس الحيوان والاتولوجيين .

ذلك انه من وجهة نظر تاريخية ، كان ماضي علم نفس الحيوان مختلفاً عن ماضي الاتولوجيا ، رغم تقاربهما الحاضر لتشكيل علمٍ للسلوك الحيواني .

ورث علم نفس الحيوان بعض المسائل الاولى التي طرحتها الفلسفة . ولم يتوصّل الى التحرّر من الفلسفة الا بفضل الحركة التجريبية والسلوكية . اذ علينا ان لا ننسى ان جـ . ب . واطسون ، وهو مؤسس النظرية السلوكية ، كان في الاصل عالم نفس حيواني . وقد ادّى علم النفس الحيواني بفضل اندفاع باحثين مثل ر . م . يركس R . M . YERKES الى ولادة « علم النفس المقارن » . وتُنشرَ غالبية الأبحاث العديدة لهذا الميدان منذ سنوات في « جريدة علم النفس المقارن وعلم النفس الفيزيولوجي« Journal of comparative and physiological psychology » . ويسيطر في هذه الابحاث الموقف التجريبي والفرضي ـ الاستدلالي ، والاجرائي . اي ان هذه الابحاث تتناول القواضم الصغيرة ، والتعلّم ، والتجارب المخبرية .

وفي موازاة هذه السلوكية ، تطوّر اتجاه آخر بشكل غير علني .

لذلك ظلّ مجهولاً لفترة طويلة من قبل النفسانيين . هذا الاتجاه متحدِّر من علم الحيوان ؛ ويشهد في الوقت الحاضر انتشاراً كبيراً ويُعرَف باسم الاتولوجيا . وقد ابتكر جيوفروا سان هيلار - Geoffroy SAiNT HiLAiRE هذه العبارة عام 1854 للاشارة الى « علم السلوك او التصرّف » . والعبارة ، طبقاً للاشتقاق ، تشير الى « عادات » الكائنات الحية . لذلك يمكن ان نقول ان « الاتولوجيا هي علم النفس كما يراه علماء الحيوان » . وقد يتساءل المرء عن نقاط الاختلاف بين الاتولوجيا وعلم النفس الحيواني التجريبي الخاص بالسلوكيين .

الفرق كبير - على الاقل - على الصعيد النظري . ذلك ان السلوكيين يعملون في المختبر في حين يجري علماء الاتولوجيا ابحاثاً ميدانية (1) . وكان جان - هنري فابر Jean - Henri FABRE اوّل من قام بملاحظات مفصّلة لسلوك الحيوانات في بيئتها الطبيعية . كما اقام بدقة محضر هذا السلوك ، اي ما نسمّيه اليوم « البيان الاتولوجي » .

لكن هذه التطوّرات الحديثة قد تلقّت دفعاً اساسياً - كما وُضِعت في اطارها الحالي - من قبل كونراد لورنز Konrad LORENZ (الذي ينعته جوليان هاكسلي Julien HUXLEY « بأب الاتولوجيا الحديثة») ونيكو تنبرجن NiKo TiNBERGEN . ويجب ، كي نكون منصفين ، ان نذكر عدداً كبيراً من علماء الحيوان وعلماء النفس الفيزيولوجيين المعاصرين ، وخاصة في فرنسا : ب . ب . غراسية P . P GRASSE ، ر . شوقان R . CHAUVIN ر . ج . بونيل R . G .

---

(1) نقول « على الصعيد النظري » لان الابحاث الميدانية لا تتعارض مع المختبر .

BUSNEL ، ج . ريشـــار G . RiCHARD وتلامذتهـــم . . . وغيرهم . ولإعطاء فكرة عن التطوّر الحالي للاتولوجيا ، نشـير الى ان مؤتمر الاتولوجيا الاخير المنعقد في مدينة رينRENNES في ايلول1969 قد ضمّ433 مشتركاً قدّموا133 بحثاً علمياً ، وعقـدوا ست جلسـات بكامل هيئاتها حول المواضيع التالية : التنظيم الاجتماعي للفقريات ، وعلـم وراثـة السلـوك ، والتصرّفـات المعقّـدة ، والاتولـوجيا البشرية (جلستان) .

ويرتبط نجـاح الاتولـوجيا وغناهـا بموقفهـا الاسـاسي : ملاحظـة الحيوان في بيئته الطبيعية ، وصف سلوكه بدقة ، ثم القيام بالتجـريب بتغيير الوسط الفيزيائي (علم البيئة الاتولوجي) ، او الوسط الاجتماعي (علم الاتصال الاتولوجي) ، او الوسط الداخلي (علم الفيزيولـوجيا الاتولوجي) ؛ واخيراً ، دراسة التطوّر الفـردي للتصرّف بتغيير مختلف الظـروف الخـارجية والـداخلية . وهــذا الاهتمام الخـاص بالتصرّف « الطبيعي » للحيوانات ، او بالاحـرى ، بتصرّف الحيوان في ظروفـه الـطبيعية (اي ظروف الطبيعـة) قد دفــع الكثـيرين الى القــول ان الاتولوجيين هم من الاخصائيين في الغريزة ، في حين يكون السلوكيون من الاختصاصيين في التعلّم . وفي الواقع ، لا يكمن الاختلاف في هذا التقسيم الاصطناعي .

لنأخذ مثل التعلّم . فقد استطاع السلـوكيون ، بعـد استيعابهـم للابحـاث البافلـوفية حول التشريط واكمالهم لها بدراستهـم للتشريط الإجرائي ، صياغة قوانين التشريط ، او بالاحرى ، قوانين التعلّم . وقد سمحت مناهجهم الدقيقة بمقارنة قدرة مختلف ممثّلي السلّم الحيواني

وباقتراح صورة للتطوّر السلالي لهذه القدرة انطلاقاً من الأواليات (حيوانات احادية الخلية) وصولاً الى الرئيسات . وتؤكد هذه الصورة ـ كما يتوقّع القارىء ـ ان الانسان « موهـوب » اكثـر من غـيره من الحيوانات . واذا كان الاتولوجيون يقرّون بان هذا النمط من الابحاث يكون مفيداً لابراز قوانين التعلّم ، وبعض اوالياته ، فهم يعترضون على فائدتها ـ على صعيد التطوّر السلالي ـ وعلى قيمتها الشاملة .

وهكذا درس تنبرجن Tinbergen وكرويت Kruyt عودة الزنبور Philantus triangulum الى عشّه . ويتميّز عشه بثقب صغير في الرمل . واحاط الملاحظون العشّ بدائرة من الصنوبر . يطير الزنبور الخارج لاصطياد النحل فوق عشه بشكل دائري خلال بضعة ثوان للاستكشاف . وبعد انقضاء ساعة او ساعة ونصف ، يعود الزنبور ـ بعد اصطياده لنحلة ـ ويجد عشّه بسهولة . وبعد هذا التعلّم السريع ، ينقل الملاحِظ دائرة الصنوبر ، فيصبح العش خارجها . ولا يستطيع الزنبور العائد ايجاد عشه ويهبط في وسط دائرة الصنوبر المُزاحة . وقد تحقّق تنبرجن من هذه الظاهرة لعدة مرّات .

وعليه لا نفهم كيف يمكن لتعلّم متاهة ان يُعلِمنا عن قدرة التعلّم المكاني الخاص بهذه الحشرة . وفي حالات اكثر « الفة » ، من نافلة القول ان بعض الثدييات تكون قادرة على الاحتفاظ في ذاكرتها ـ وفي ظروف طبيعية ـ بعناصر استدلالية يمكن استعمالها بعد انقضاء فترة طويلة من الوقت : مخبأ الطعام ، التعرّف الشمّي على الاشخاص لدى الكلب . . . الخ .

وغالباً ما نكون إزاء قدرات خاصة بالجنس الحيواني الخاضع

للدراسة ، وهي قدرات مشروطة بالنظام الوراثي الخاص بهذا الجنس . وعليه قد نّتصف بالاصطناعية غير المبرّرة حين نحاول مقارنة هذه القدرات تبعاً لسلّم كمّي : ذلك ان الانسان يكون عاجزاً عن القيام ببعض انماط التعلّم لا تجد الحيوانات اية صعوبة في انجازها . ويكمن الاختلاف اساساً في ان التعلّم الحيواني يكون خاضعاً بشكل دائم للنظام الوراثي . اي ان التعلّم الحيواني يكون دائماً « فطرياً » . لكن دراسة التصرّف في الظروف الطبيعية تسمح ايضاً باكتشاف بعض انماط التعلّم التي بقيت مجهولة تماماً في الظروف الاصطناعية للتعلّم الباڤلوڤي والاجرائي ؛ كما هو الحال بالنسبة للانغراس.

اكتشف لورنز عام 1935 ان تثبّت فراخ الوز بأم الوز ـ وهي ظاهرة تبدو فطرية ـ تنتج في الواقع عن سياق غريب حيث نكشف في آن معاً وجود استجابة وراثية وتعلّم . فالتثبّت فطري ، لكن موضوع التثبّت يكون مكتسباً . ففي غياب الأم ، تتعلّق فراخ الاوز المولودة في الحاضن بأوّل موضوع تصادفه ، كالمربّي مثلاً . ويتم هذا التعلق بأوّل مخلوق متحرّك خلال فترة حسّاسة تستمر 36 ساعة . ويكون غير قابل للانعكاس .

ومنذ ذلك الحين ، تم دراسة عدد كبير من ظواهر الانغراس ، وخاصة لدى العصافير . وأكتشِفَ ان ظواهر الانغراس هذه ترتبط بمرحلة حسّاسة تتّصف مدّتها وسماتها بالخصوصية تبعاً للاجناس الحيوانية . وبعد تجاوز هذه المرحلة ، لا يعود الانغراس ممكناً . فبعض الطيور (غراب الزرع ، حمام ، قرقب) التي ترعرعت خارج جنسها الحيواني ترفض في فترة التوالد قريناتها الطبيعية ، وتحاول عبثاً التزاوج

مع طيور تنتمي الى الجنس المتبني ، وحتى مع أُذن المربّـي البشري او انفه . وندرك بوضوح الآفاق المهمة والفرضيات التي قد تَلِد انطلاقاً من مقولة المرحلة الحسّاسة هذه ، ومن مواضيع التثبّت غير الطبيعية التـي تلتقي مع مواضيع العياديين في علم النفس المرضي . ولا نرى كيف كان من الممـكن القيام بملاحظـات كهـذه باستخـدام المناهـج السلـوكية التقليدية . وفي المقابل ، يمكن ، بعد تحديد الظاهرة « الطبيعية » دراسة الظاهرة نفسها في ظروف المختبر الاصطنـاعية وهـكذا اخـذ باتيسـون BATESON صوصاً وليداً ووضعه في قفص مستطيل ذات الجـدران الزجاجية . وكان يضم القفص في كل زاوية من زواياه ، لمبة تدور على محورها . وبعد انقضاء بعض الوقت ، نلاحظ ان الصوص يقضي وقته على مقربة من هذه اللمبة ، وإن كانت جامدة .

وفي تجربة اخرى ، ثبت المجرِّب في ارض القفص دوّاستين كانت احداهما تضيء لمبـة موضوعـة في القفص نفسـه . كما وُضـع الطعـام والشراب في زاوية من زوايا القفص . وسيتعلم الصوص الذي وُضِعَ في هذا الجهاز ـ وبسرعة ـ اضاءة اللمبة . كما سيُمضي وقته في هذه اللعبة الصغيرة ، فلا يتركها الا ليأكل بسرعة من وقت الى آخر .

وتكمـن فائـدة هذه التجـارب في التحـديد التجريبـي لظاهـرة الانغراس ولكنها تُبرِزُ ايضاً عنصراً آخراً مهماً للغاية : فقـدرة الحيوان على التثبّت بموضوع متحرّك تكون ملازمة لدافع قوي بما فيه الكفاية ، فتصبح في اساس اقامة تعلّم اجرائي مبكّر جداً ، ويُدمَج هذا الدافع في حاجة اكثر شمولية ابرزتها تجارب اخرى . ويمكن ان نطلق على هذه الحاجة اسم « الحاجة الى المثيرات » ، فلا يكون الكائن الحي بحاجـة

فقط لبيئة فيزيائية ملائمة ولغذاء متوازن ، بل ايضاً لكمية كافية من المعلومات . ولهذه المعلومات مظهران : مظهر كميّ ومظهر نوعي . اذ قد تبينّ ان البيئة الفنّية بالاثارات لا تقوم فقط بتسهيل النمو ، والثبات الانفعالي ، والاستجابات التكيّفية العديدة ـ كما تبينّ ذلك لدى الجرذ في الابحاث التي تناولت « الخبرة المبكّرة » ـ بل من الضروري ايضاً ان تظهر مثيرات من نوعية محدّدة في فترات معيّنة من التطوّر الفردي ، كي يستمرّ التنظيم السلوكي بشكل طبيعي. فالتجارب التي تناولت التربية في العزلة قد ابرزت التياثات خطيرة في السلوك الجنسي لدى الكوباي ، والرئيسات ، والدجاجيات التي تربّت في العزلة ، اي محرومة من الاثارات الاجتماعية .

لقد أغْنت كل هذه الابحاث معارفنا حول التطوّر الفردي للسلوك[1] كما طرحت مجدّداً مسألة اهمية كل من الوراثة والبيئة ، وهي مسألة تقليدية .

يكون « النمط التكويني » موروثاً : بعبارة أُخرى يكون مرتبطاً بالنظام الوراثي نفسه ، اي ـ في التحليل الاخير ـ بالحامض الحاوي على الريبوز النواتي الصبغي والخالي من الاوكسيجين[2] Acide désoxyribonucléique chromosomique . وسيكون « النمط الظاهر » نتيجة لتنظيم المواد والمعلومات تبعاً لقواعد النمط الوراثي . اي

---

(1) ليس بامكاننا أن نعرض هنا ـ في ما يختص بالطفل البشري ـ أبحاث ر . شبيتز R. Spitz وفرضياته التي تُعتبر نموذجاً للاتصال المطبّق على الجنس البشري . ويمكن للقارىء أن يرجع الى كتاب ر . شبيتز «De la naissance à la parole» .

(2) سنناقش هذه المقولات في فصل « الجوار العلمي » .

ان النمط الظاهـر سيكون جسمانياً وسلـوكياً في آن معـاً : كما سيكون تحقيقاً للنمط التكويني حسب المحيط . وأمكن القول ان النمط الظاهر يتعدَّد بالوراثة بنسبة 100 ٪ وبالتـاريخ بنسبـة 100 ٪ ايضـاً . كم تم مؤخراً اقتراح مقولة جديدة ،وهي مقولة « النمط الدرامي » . وتعبِّر هذه المقولة عن النمط الظاهر في الوضعية الملموسة « هنا والآن » .

وللايجاز ، يمكن القـول ان النمـط الظاهـر هو التحقيق التعاقبـي للنمط الوراثي في حين يكون « النمط الدرامي » التحقيق التزامني للنمط الظاهر .

الطريقة الاتولوجية

اذا استطاعت بعض العناصر السابقة ان تعطي القارىء فكرة عن تمايز وجهة النظر الاتولوجية بالنسبة لعلم النفس الحيواني ، فلا بد من تحـديد الطريقـة التـي تتبّعهـا الاتولـوجيا . ذلك ان دراسـة تبـادلات المعلومات وانساق الاتصال لدى الحيوانات لم تخلق فقط تقارباً اكيداً مع الاهتمامات المعاصرة لعلم نفس البشر . ولكن يمكن ايضاً ان نكشف في هذه الطريقة تشابهاً كبيراً مع استعمال النماذج اللغوية ، هذا الاستعمال الذي يميّز « العلوم الانسانية » في الوقت الحاضر . ذلك ان المهمة الاولى للعالم الاتولوجي تكمن في اقامة البيان الاتولوجي . ويضم هذا البيان ـ وهو عبارة عن دراسة وصفية ودقيقة للسلوك ـ قائمة وتركيباً .

وتكمن صياغة القائمة في جرد صميات النشـاط الخصـوصي لدى الحيوان . فتكون الصميات عبارة عن وحـدات منفصلـة ومعزولـة في المجموعة الاتّصالية الزمنية الخاصة بالحيوان . كما تتحدّد بسمات ملائمة كاللمس ، وحركات التزيّن ، والنقر ، وجمع الصغـار ، والارسـالات

الصوتية . . . الخ . وبعد صياغة هذه القائمة ، يمكن تحديد التركيب استناداً الى نظرية الاحتمالات . ذلك ان مختلف صميات النشاطات الخصوصية لا تظهر عشوائياً ، بل تنتظم احداها زمنياً بالنسبة للبعض الآخر في متتاليات تختلف من حيث احتمال ظهورها . وسيضع الباحث هكذا جداول بمتغيّرتين تسمح بتحديد احتمال مصادفة هذه الصميمة بعد حدوث صميمة اخرى . ويمكن ، على هذا النحو ، اقامة الجملة النمطية (المتتالية الاكثر احتمالاً على الصعيد النظري) . كما يمكن تحديد احتمالية كل من مختلف « خطوط السير » .

وسيهتمّ الباحث في مرحلة لاحقة « بالدلالة » . اي انه سيهتم في حال دراسته للحيوان المُرسِل بدافع صميمة النشاط الخصوصي : في اي محيط تحدث ، وبأية حالة فيزيولوجية ترتبط ، وما هي وظيفتها الاجتماعية المحتملة ؟

ان عدم مبادلة القوائم يرغمنا على تناول دلالة المتلقّي المحتمل بشكل منفصل كما يدفعنا الى تحديد « المُطلِقات الاجتماعية » التي سنتكلّم عنها لاحقاً . وتتدخّل هنا « طريقة الخدعة » المشابهة جداً لطريقة التحليل الفونولوجي . الا ان هذا يحثّنا على لفت انتباه القارىء الى مسألة محدّدة تتعلّق بانساق الاتصال لدى الحيوانات . وقدخضعت هذه المسألة لبعض التعديلات بفضل النتائج التي توصلت اليها الاتولوجيا المقارنة

نسق الاتصال لدى الحيوانات

عام1958 ، كان الفيلسوف الفرنسي جـ . غانغييم يشير بنباهة الى مسألة اساسية : « . . . هل يمكن الحديث بدقة عن نظرية عامة للسلوك

ما دمنا لم نحلّ بعد المسألة التالية : هل ثمة اتصال او انقطاع بين اللغة البشرية واللغة الحيوانية ، وبين المجتمع البشري والمجتمع الحيواني ؟ » والمعطيات التي جمّعها الاتولوجيون تسمح الآن بالاجابة على هذا السؤال بطريقة تبدو واضحة وغير ملتبسة . كما توفّر هذه الاجابة مدخلاً ممتازاً لمسائل الاتصال البشري .

ونورد هنا عناصر اوّلية من اجابة تستحق ان تكون اكثر اكتمالاً وبرهنة ، ذلك انها تتعلق بكل ما توصّلت اليه الاتولوجيا المعاصرة . وادعو القارىء غير المرتوي الى جعلي مسؤولاً عن هذا النقص . كما اطلب منه عدم اتهام الاتولوجيا . واوصيه بالاطّلاع مباشرة على هذا العلم بالرجوع الى بعض المراجع المذكورة في البيبليوغرافيا ، هذه المراجع التي لا تشكّل سوى الحد الادنى . . .

اهمية الاتصالات الحيوانية وضرورتها

تبرز بوضوح هذه الاتصالات بين الكائنات الحية في التصرّفات التوالدية ، اي في التصرّفات الجنسية والوالدية . كما تبرز ايضاً في التصرّفات الاجتماعية .

ويلعب تبادل الاشارات الخصوصية دوراً اساسياً في التصرّفات الجنسية . فعلى الذكر والانثى ان يختار احدهما الآخر دون خطأ ودون تعلّم . كما عليهما ايضاً ان يزامنا حركاتهما واثارتهما كي يوفّرا ـ في اللحظة المناسبة ـ اقصى الاحتمالات الاحصائية لالتقاء الخلايا الجنسية(1)

(1) ـ الخلايا الجنسية هي الحيوانات المنوية والبويضات .

الذكرية والانثوية . ويقتضي هذا الامر في اجناس حيوانية عديدة ، متتاليات من السلوك تكون معقّدة للغاية وخصوصية . وتُعرَف هذه المتتاليات في بعض الحالات المثيرة للدهشة باسم « شعائر الغزل » او « الاستعراضات الجنسية » . فالتعرّف على القرين ، والتزامن السلوكي لا ينجزان الا بفضل تبادل اشارات متنوّعة (اشارات بصرية ، وسمعية ، وكيميائية ، ولمسية . . .) . وقد بيّنت الدراسات ان هذه التبادلات مرتبطة بالجنس الحيواني ، اي انها تتعلق ، في التحليل الاخير ، بالنظام الوراثي .

وسنورد هنا مثلاً اصبح شهيراً الآن ، وهو مثل السلوك الجنسي لدى سمكة صغيرة تُعرَف باسم « ابو شوكة » . وقد درسها ن . تنبرجن (انظر الى الرسمتين او2 في الصفحات 59, 60) .

حين يبلغ الذكر نضجه الجنسي في الربيع ، يترك عصبته ويختار مجالاً يتميّز بنباته وعمقه/وحرارته . فيبني فيه عشاً من بقايا النبات . والذكر عادة ذو لون بني باهت . الا انه يبرز في هذه المرحلة خلعة الزواج . فيميل لونه الى الخضرة ، ويصبح بطنه احمراً وتصبح عيناه زرقاوتين ولامعتين . وفي حال دخول ذكر آخر في مجاله ، يؤدي ذلك الى سلوك تهديدي يكون كافياً ، في الاحوال العادية ، لاحداث هرب الدخيل . وفي المقابل ، يُطلِق ظهور انثى محمّلة بالبيض استعراض الزواج . فيرتجف الذكر ويسبح بشكل متعرّج نحو الانثى ، ثم يتراجع تدريجياً نحو العش . فتتبعه الأنثى (إذا كانت في حالة التقبّل) . ويتجه الذكر حينئذ نحو العش ويشير بفمه الى المدخل ؛ فتدخل الأنثى في العش . حينئذ يحك الذكر بفمه أسفل بطن الأنثى ، فتضع هذه الأخيرة البيض ثم تذهب . ويدخل الذكر بدوره في العش ، فيخصب

البيض . ثم يؤمن التهوية والحماية خلال كل فترة الحضانة ، فيبقى في جوار مدخل العش .

وتترابط هكذا سلسلتا النشاط الخصوصيتان لدى القرينين . فتُطلِق كل استجابة يقوم بها احدهما استجابة لدى الآخر ستكون ، بدورها ، بمثابة مُطلِق بالنسبة للاول . ويمكن اعتبار كل متتالية بمثابة « وحدة منفصلة » يطلق عليها الاتولوجيون اسم « المُطلِق » . ويسمح التحليل التجريبي للمتتالية بتحديد سماتها الملائمة . وفي حال غياب او تغيير عنصر واحد من السلسلة ، يتوقّف الحوار .

وهكذا هو الحال في التصرّفات الوالدية . وغالباً ما سيكون تبادل الاشارات بين الاهل والذرية حاسماً ، اذ انه ضروري لبقاء الصغار في اجناس حيوانية متعدّدة . وهكذا ـ كما بينّ ذلك ن . تنبرجن ـ حين تفرّخ صيصان النورس الفضي ، تجلب الأم الطعام . فترفع الصغار رؤوسها نحو الأم ، وتدق منقارها (ويكون الفك الاسفل مزيّناً ببقعة حمراء) . حينئذ ، تفرّغ الام الطعام وتقدمه للفراخ التي تلتقطه وتبتلعه بعد عدّة محاولات فاشلة . وقد بينّ تنبرجن ان هذه التصرّفات ـ التي تبدو بسيطة ـ هي ، في الواقع نتيجة لتبادل اشارات محدّدة للغاية . واذا لجأنا الى التجريب بالخدع ، نستطيع ان نبينّ الامور التالية .

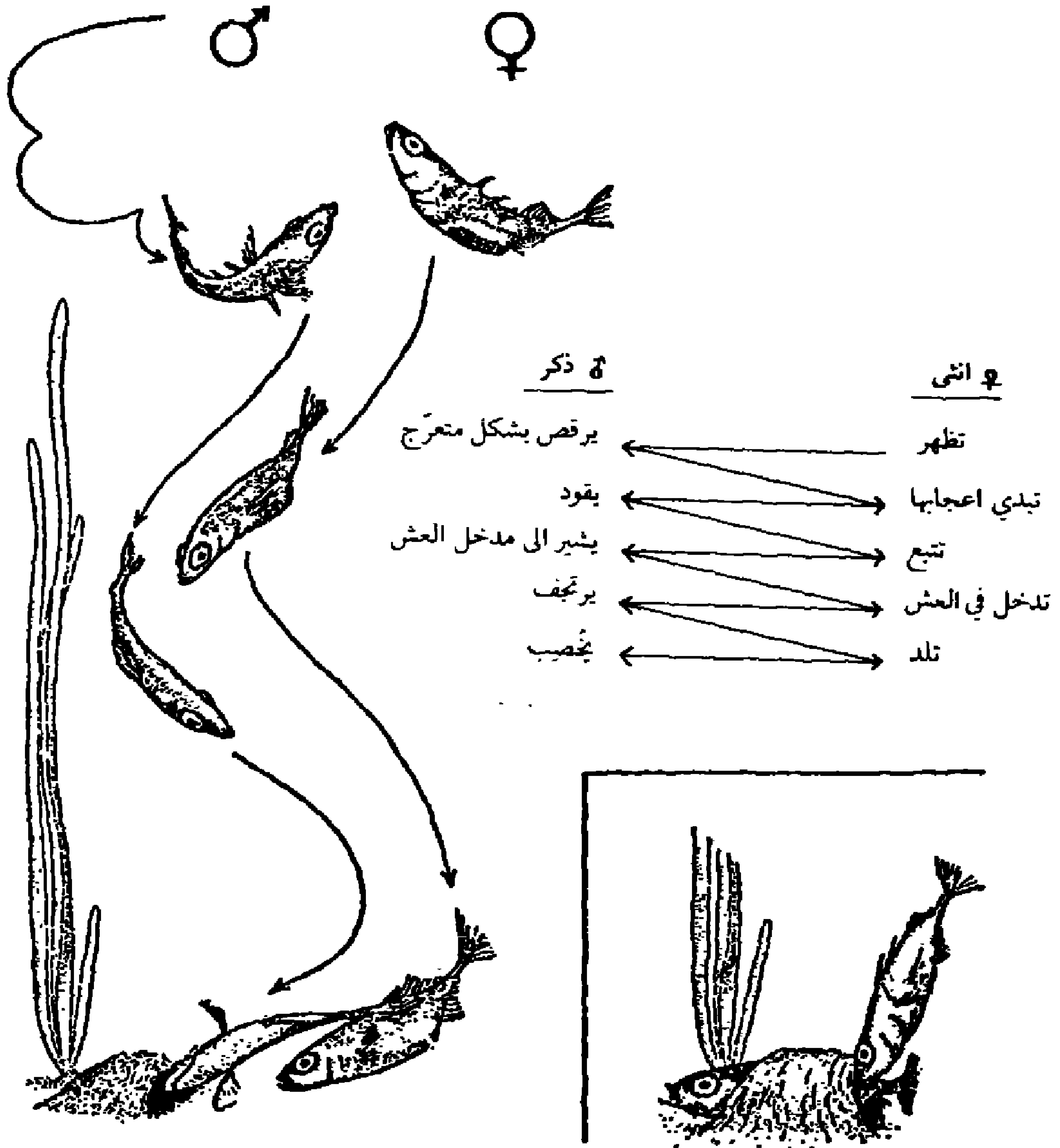
ـ ان صورة من الورق المقوّى ، ملوّنة بالالوان الطبيعية للطير (اي منقار اصفر مع بقعة حمراء) تُطلِق نقر الصغار .

ـ ان صورة مجرّدة من البقعة الحمراء تكاد لا تحدث النقر .

ـ يمكن تغيير شكل الخدعة . فيكون عود احمر مع ثلاث حلقات بيضاء اكثر فعالية من رأس حقيقي .

وهكذا ترسل الأم ، بفضل بقعة حمراء في منقارها ، اشارة بصرية تحدث تصرّفاً محدّداً لدى الفراخ التي تتلقّاها .

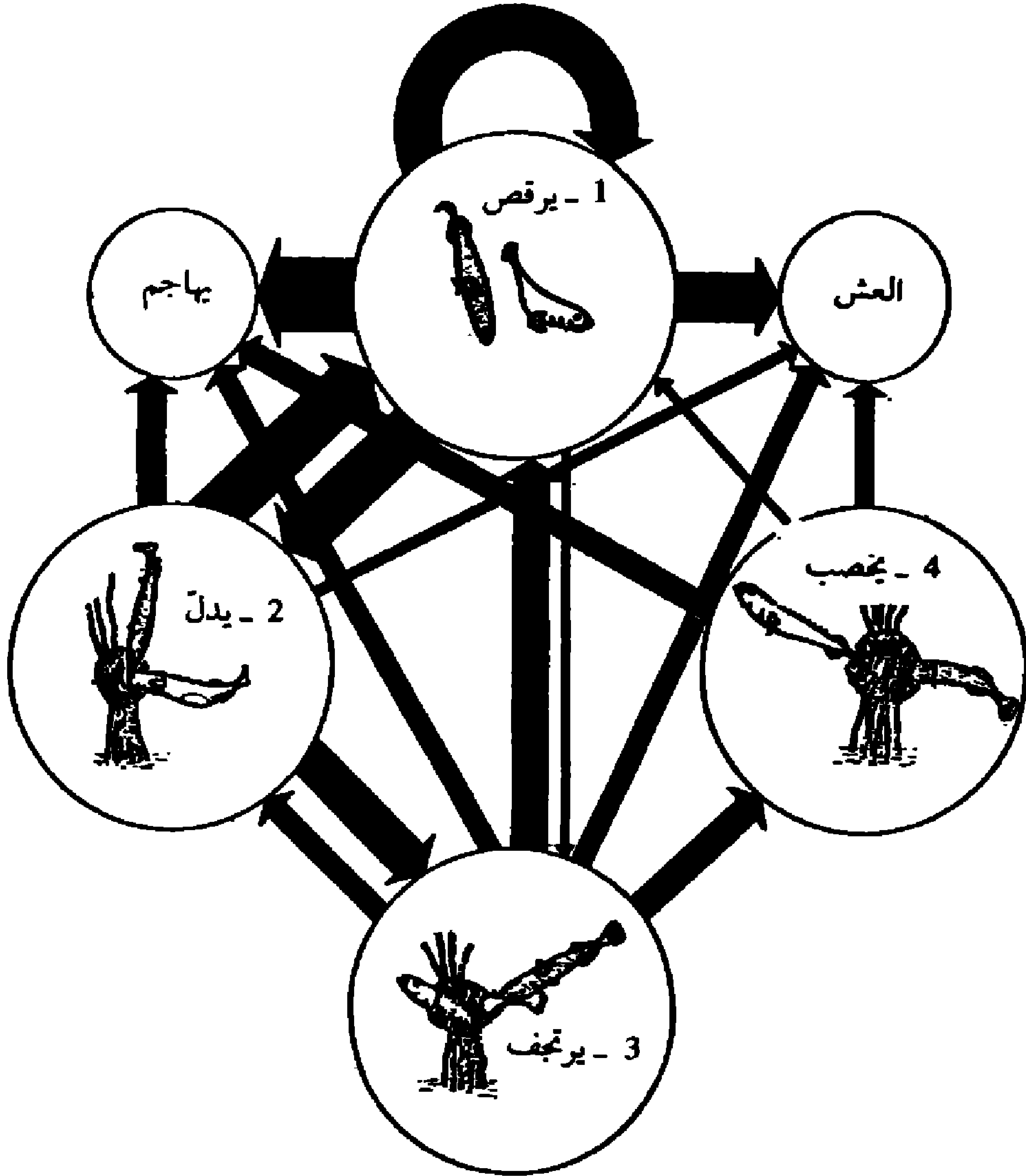
ويكون هذا التصرّف بدوره ، وبالمثير اللَمْسي الذي يقدمه الى الام ، بمثابة اشارة . وهذه الاشارة التي تتلقّاها الام ستُطلِق لديها تقديم



رسمة رقم 1 : التصرّف الجنسي لسمكة « أبو شوكة » (ثلاث شوكات) حسب تنبرجن .

الطعـام للصغـار . وسيُطلِق تقـديم الطعـام التصرّف الغذائـــي لدى الفراخ .

ونحن هنا ازاء تبادل اثارات ما ـ بين ـ فردية تترابط فيما بينهـا في



رسمة رقم2 : متتالية صميات النشاطات الخصوصية في التصرّف الجنسي لذكر « أبو شوكة » (عشر شوكات) (بالاسود) حسب موريس MORRIS (1958) . وتتناسب مساكة السهام طرداً مع احتمالية الانتقال من نقطة الى اخرى .

تسلسل استجابات يكون مهماً للغاية بالنسبة لبقاء الحيوان .

اخيراً يستحيل تصوّر وجود مجتمعات حيوانية دون وجود نسق اتصال متقن للغاية . ولعل افضل نموذج لنسق الاتصال هذا هو « لغة النحل » .

لقد اكتشف فون فريشVON FRiSH ان نحلة مستكشفة ، بعد اكتشافها لمورد رحيق ، تكون قادرة بعد عودتها ، على اعلام بني جنسها بوجهة الطعام ، ومسافته ، وكميته ، وطبيعته . وبعد انقضاء بضعة دقائق على عودتها ، نلاحظ عشرات النحل خارجة من القفير للتموّن من المورد دون ان تكون النحلة المستكشفة برفقتها . ويشار الى الاتجاه برقصة على شكل «8» . وتكون الزاوية المستعرضة والمنحنية بالنسبة للخط العامودي مساوية للزاوية التي يؤلفها المورد بالنسبة للشمس ، وحيث يكون القفير بمثابة رأس الزاوية . ويُشار الى المسافة بمدّة الارتجاف في حين يشار الى كثافة المورد بالمدة التي تستغرقها النحلة في الرقص . اما طبيعة الطعام ،فتتحدّد بالرائحة التي تجلبها النحلة المستكشفة .

مقولة « الموحي » او « المطْلِق الاجتماعي »

عام1935 ، لفتَ لورنز الانتباه الى ان الكثير من الاجناس الحيوانية تمتلك صنفاً خاصاً من الاعضاء المنفِّدة(1) (بنى ملوّنة ، وصفيات الجسم ، حركات ، اعضاء مُرسِلة لمواد محدّدة واصوات معيّنة . . . الخ) . والوظيفة الرئيسية لهذه الاعضاء ـ وغالباً ما تكون الوظيفة

(1) ـ او « المُرْسلة » في المعنى الذي اعطاه شانون لهذه العبارة

الوحيدة ايضاً ـ هي ارسال الاشارات للأقران التي تمتلك اواليات استجابات خصوصية على هذه الاشارات وهكذا سنطلق اسم « المُطلِق الاجتماعي » على بنى ، واشكال ، والوان ، وحركات ، واصوات ، وروائح . . . الخ من شأنها ان تحدث استجابة لدى فرد آخر ينتمي الى الجنس الحيواني نفسه .

وغالباً ما تكون هذه المُطلِقات مكوّنة من ترابط عناصر متنوّعة من حيث طبيعتها (مثلاً ترابط عنصر بصري وسمعي ، او تفصيل مورفولوجي مع وضعية جسم محدّدة الخ .) وتؤمن هذه المطلقات الاتصالات ما ـ بين ـ الفردية باستعمالها لعدة قنوات .

رأينا آنفاً بعض النماذج عن المطلقات البصرية كالبقعة الحمراء على منقار النورس .

ويمكن تطبيق التحليل التجريبي الذي عرضناه على حالات اخرى . فلنأخذ الحالة التي وصفناها آنفاً ، وهي حالة السلوك العدواني لدى ذكر « ابو شوكة » تجاه ذكر آخر يقترب من مجاله . فاذا استبدلنا الدخيل بخدعة من البلاستيك ، نلاحظ ما يلي : ان الرسم « التمثيلي » الذي يفتقد الى اللون الاحمر لا يُحدث العدوان . الا ان صورة غير متقنة لا توحي للعين البشرية بشكل السمكة ، اية سمكة ، قادرة على احداث هذه الاستجابة شرط ان تتضمّن منطقة « بطنية » حمراء . كما يمكن القيام بتجربة مماثلة على عصفور « ابو الحن » . فاذا وضع المجرّب في مجال الذكر ذكراً آخراً محنطاً وفاقداً للريش الحمراء ، سوف لن يلاحظه الذكر الحقيقي كما سيتقبّله بسهولة . وفي المقابل ، اذا وضعنا في جواره باقة من الريش الحمراء رُبِطت بشكل غير متقن بخيط من الحديد ، سيبدي

الذكر عدوانيته تجاهها . فالكثير من التفاصيل المورفولوجية التي كانت تعتبر في السابق بمثابة شواذات طبيعية تأخذ الآن كل دلالتها . كما انها ترتبط غالباً بوضعيات جسمية او بحركات محدّدة (وقد اضحت امثلة استعراضات الزواج معروفة في هذا المجال) .

* للمطلقات السمعية سمات خاصة تجعلها المفضّلة لدى الجمهور .

فالاتصال الصوتي يتحمّل اولاً أكثر من غيره من الاتصالات الاسقاطات والتأويلات الانسوية . فبما ان اللغة الانسانية لغة شفهية بشكل اساسي ، سيؤدي الحديث عن الاتصال ، لدى الكثيرين ، الى طرح السؤال التالي : هل تتبادل الحيوانات اشارات صوتية اعلامية ؟

من جهة اخرى - وكما يشير الى ذلك ج . بونل - G . Busnel للاشارات الصوتية فعلاً بعض المزايا تجعلها مهيأة للاستعمال كسناد للاعلام . فهذه الاشارات غير مرئية ، كما يمكن ادراكها من مسافة كبيرة ، وموضعتها في المكان . وهي ، بالاضافة الى ذلك ، لا تترك اثراً . كما يمكن ايضاً بناءها بطرق عديدة تبعاً لامكانيات المُرسِل . اي انها تسمح بقائمة متنوعة ، مع كمية كبيرة من المعلومات في وحدة زمنية معيّنة . ونضيف اخيراً ان تقنيات التسجيل الكهربائية - السمعية الحالية تجعل دراسة هذه الاشارات مُرضية للغاية ، وتسمح، بالوسائل التسجيلية للصوت ، بالقيام بجردات كاملة للارسالات الصوتية ، هذه الارسالات التي يختلف عددها باختلاف الاجناس الحيوانية : 2 للجراد ، 2 الضفدعة ، 6 للنورس الفضّي ، 20 للدجاجة ، 30 للخنزير ، 15 للشق (اجناس قرود من اشباه الانسان) .

ويصنف ر . بونيل R. Busnel هذه الاشارات في اربع فئات ،

وذلك تبعاً لوظيفتها :

ـ في العلاقات الجنسية : صراخ المناداة ، وصراخ الغزل ، وصراخ التنافس .

ـ في العلاقات العائلية : مناداة الاهل او الاولاد ، التعرّف الفردي .

ـ في العلاقات الاجتماعية : تآزر الجماعة ، صراخ الانذار بالخطر ، التصرّف الغذائي ، ارسالات كشف الحواجز(1) (لدى الخفّاش والدُلفين مثلاً) .

والمسائل التي تطرحها هذه الاشارات الصوتية معقّدة . وليس في وسعنا ان نفصّل المسائل هذه في هذا المجال ، ولكن لا بد من الاشارة الى انها ترتبط دائماً « بالهنا والآن » ، اي بالوضعية من جهة وبالحالة الفيزيولوجية للمرسل من جهة اخرى . وعليه تكون هذه الاشارات تعبيرية فقط ولا تتضمّن قط دلالة ترتبط بعنصر مرجعي غائب . بالاضافة الى ذلك ، تكون هذه الاشارات مرتبطة دائماً ـ كما هو الحال بالنسبة للإشارات الاخرى التي استعرضناها حتى الآن ـ بالنظام الوراثي للجنس الحيواني ؛ ولو أثر المحيط ، تبعاً للحالات ، على هذا التعبير نفسه : وهكذا هو الحال بالنسبة لبعض « تغاريد » الجواثيم حيث نلاحظ تغييرات في « اللهجات » المحلية .

ان المطلقات الكيميائية معروفة منذ فترة طويلة ، وإن لم تبرز اهميتها ـ وتعقيدها ـ الا منذ سنوات قليلة . وتُطلَق عبارة

(1) ـ وسيلة تكمن في ارسال اشارة ثم التقاط الصدى الممكن لكشف حاجز معينّ .

« فيرونومات » على جزئيات كيميائية تنقل معلومة بين حيوانات تنتمي الى الجنس نفسه. فمواد المناداة الجنسية، والمحدِّدات الشمية للمجال، والمنبِّهـات بالخطـر تنتمـي الى فئـة « الفيرونومـات المية ». الا ان الباحثين قد اكتشفوا ان لبعض المواد اكثر من دور اعلامي. فلهذه المواد وظيفة « تنظيمية » للجماعة وهذا ما استدعى تسميتها « بالهورمونات الاجتماعية ». وهكذا استطاع الباحثون، وبفضل عدة تجارب ماهرة ان يعرفوا ان غشاءات ملكة النحل تفرز حامضاً خلوياً تلمسه العاملات، ثم يُنقل الى كل الجالية بتبادلات الطعام. ويصد « الفيرونوم » هذا نمو المبيض لدى العاملات، كما يصد ايضاً ميلهم الى بناء خلايا ملكية جديدة. فاذا ماتت الملكة، ستتحوّل العاملات الى اناث وظائفية تضع البيض (بتوالد عذري يعطي الذكور) كما ستربّى اليرقانات في الخلايا الملكية بطعام مخصّص لتأمين ملكة للقفير. وظواهر التنظيم هذه أكثر عدداً مما نظن. وتتدخل هذه الظواهر أيضاً، على وجه الخصوص ، على المستوى البين - نوعي. ويعتقد علماء البيئة. أن توازن النظام الطبيعي يتبع سلسلة من المعلومات تضبط أيضه واستمراريته. وتنتقل هكذا في كل متّحد احيائي محدّد جزئيات محدّدة أو جزئيات كبيرة تتضمّن كمية معيّـنة من المعلومات تنتظم بفضلها استمرارية هذا المتّـحد وحركيته.

العالم الموضوعي والعالم الغيري

انطلاقاً من كل المبادىء السابقة، نستنتج ان لكل جنس حيواني أواليات تكاملية داخلية، مبرمجة وراثياً، تجعله قادراً على التقاط بعض الاشارات، وعلى اعطاء دلالة لها. اي ان هذا الجنس الحيواني يكون

قادراً على الاستجابة بسياقات نفس ـ فيزيولوجية خصوصية . وفي الوقت نفسه ، لا بد لكل بحث سيميائي مقارن ان يأخذ بعين الاعتبار واقعين غالباً ما تم تجاهلهما :

1 ـ سيحدّد التجهيز الشراحي ـ الفيزيولوجي طبيعة المعلومات المُدْركة كما سيطبعها ببعض الضغوطات القهرية . الا ان هذا التجهيز يختلف تبعاً لاختلاف الاجناس الحيوانية . وهذا يعني ان « العالم الذي نتلقاه » يتغير لدرجة يعجز الجنس البشري عن تصوّرها .

* لنذكر بعض الامثلة :

* **في المجال البصري** : تستطيع شبكة العين البشرية التقاط موجات يتراوح طولها بين 400 و750 نانوميتر . اما الحشرات ، فتدرك موجات يتراوح طولها بين 300 و650 ملّيمتر وتستطيع بالتالي ان ترى الاشعاعات فوق ـ البفسجية : الا انها لا ترى اللون الاحمر . ثم ، ان الكثير من الحيوانات اللافقارية تكون قادرة على التعرّف على اتجاه الضوء المستقطب . وهذا ما يسمح للنحل بالتوجّه طبقا لموقع الشمس وإن كانت السماء ملبّدة بالغيوم .

في المجال السمعي : لا نستطيع ان ندرك الاصوات التي تتجاوز 20 كيلو سيكل في الثانية . ونطلق عليها اسم « الاصوات الفوقية » . الا أن الوطاويط، والقواضم ، والكثير من أكلة اللحوم والحشرات تكون قادرة على التقاط بعض الاصوات . حتى انها تكون قادرة في بعض الحالات على سماع اصوات تتجاوز 100,000 كيلو سيكل . وعليه ، يكون العالم الصوتي » لهذه الحيوانات مختلفاً جداً عن عالمنا الصوتي .

* **في المجال الشمّي** : يكون الكلب قادراً على الاستجابة على تكثيف دون10,000 جزئية من الحامض الزُبدي في حين لا يستطيع الانسان ان يكشفه الا اذا تضاعف التكثيف مليون مرّة وأكثر .

* **في مجالات نجهلها** : تكون بعض الاسماك قادرة على ادراك تغييرات الحقل الكهربائي المحيط بها .

فلبعض الجلجليات (جنس حيّات سامة) عين خاصة بالاشعة « تحت الحمراء » . وتستطيع بالتالي أن تلتقط اشعاعات يتراوح طولها بين1,5 و15 نانوميتر ، كما تكون قادرة على تحديد مصدرها .

من نافلة القول ان الامثلة التي اوردناها لم تكن كاملة . ولكنها تعطي فكرة عن واقع معينّ . وهو ان « العالم الموضوعي » او « العالم الذي يتلقّاه كل حيوان يجب ان يُعتبر - قبلياً - مختلفاً عن العالم الانساني . ونكتفي بالاشارة الى ان عالمنا الموضوعي يفتقد تماماً الى الموضوعية ، ذلك انه يتقطّع تبعاً لمقولات حسّية واعتباطية للغاية .

2 - وهكذا هو الحال بالنسبة « للعالم المُدرَك » الذي سنسمّيه « العالم الغيري » . فلا يكفي امتلاك المستقبلات المناسبة لادراك ظاهرة محدّدة . رأينا آنفاً انه يجب ايضاً امتلاك البنى الداخلية للاستيعاب القادرة على فك رموز الرسالة المعقدة وعلى اعطاء دلالة لها . الا ان هذا ايضاً لا يكفي . فلا بد من وجود دافع لدى الكائن الحي كي يتم استيعاب الرسالة .

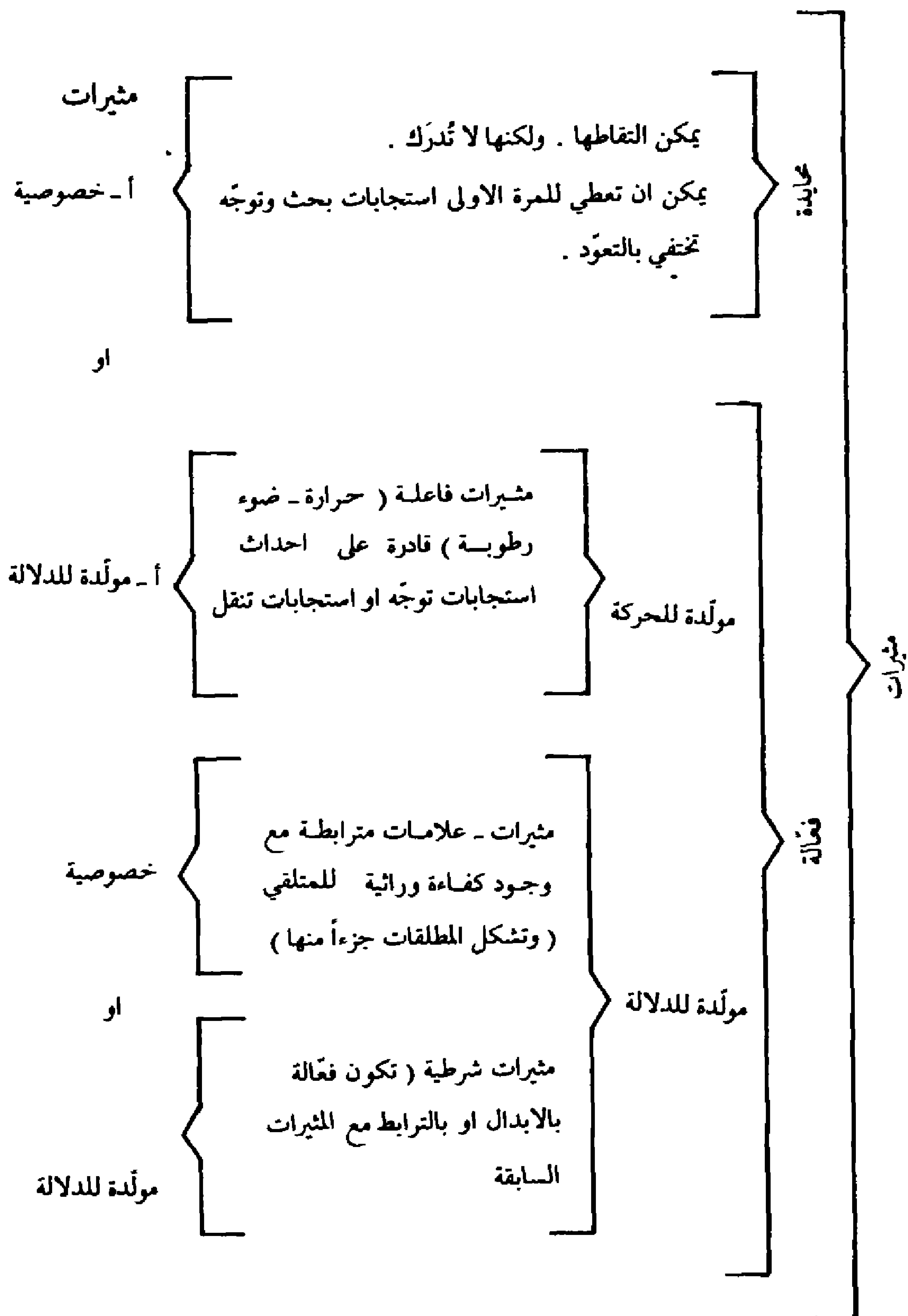
فخارج فترة التوالد ، لا يستجيب ذكر « ابو شوكة » للخدعة ذات البطن الاحمر . من جهة اخرى ، تستجيب الحيوانات ، كما رأينا ، لمطلقات اجتماعية : اي لاشارات خصوصية تشكل جزءاً من مجموع لا

يُدرك بحد ذاته ، كالريش الحمراء لدى « ابو الحن » او البقعة الحمراء في منقار النورس . ونجد السمات نفسها حتى لدى الحيوانـات الاكثـر تطوّراً . فبالنسبة للكلب ، لا يكون سيده شخصاً ، كما نتخيّل ذلك ، بل مجرّد رائحة .

بعبارة اخرى ، تكون العلاقة بالموضـوع لدى الحيوانـات علاقـة جزئية . ان موضوع التـوظيف الجنسي لا يكون مستمـراً في المكان او الزمان . بل يكون الى حدّ كبير خاضعاً لحاجات « المتكلّم » و « للهنا » والآن » . كما يكون تابعاً ايضاً للاشـارات التـي يصدرهـا المتلقّـي . ويختلف الأمر عموماً بالنسبة للجنس البشري

وبعد هذه الملاحظـات الاولية ، يمـكن تصـنيف مثـيرات العالـم الحيواني بشكل صوري على النحو التالي (انظر الجدول)

ويقتضي هذا التصنيف الصوري بعض التعليقات . وهكذا ، كي يكون المثير المولّد للدلالة فعّالاً ، عليه ايضاً ان يكون مولّداً للحركة . بعبارة اخرى ، عليه ان ينشّط مستوى التيقظ .



مثيرات
محايدة
يمكن التقاطها . ولكنها لا تُدرَك .
يمكن ان تعطي للمرة الاولى استجابات بحث وتوجّه
تختفي بالتعوّد .
مثيرات
أ ـ خصوصية
او
فعّالة
مولّدة للحركة
مثيرات فاعلة (حرارة ـ ضوء
رطوبة) قادرة على احداث
استجابات توجّه او استجابات تنقل
أ ـ مولّدة للدلالة
مولّدة للدلالة
مثيرات ـ علامات مترابطة مع
وجود كفاءة وراثية للمتلقي
(وتشكل المطلقات جزءاً منها)
خصوصية
او
مثيرات شرطية (تكون فعّالة
بالابدال او بالترابط مع المثيرات
السابقة
مولّدة للدلالة

من جهة اخرى ، وحدها المثيرات المولّدة للدلالة - والمثيرات الاجتماعية او المطلقات على وجه الخصوص - تهمنا بالنسبة لدراسة الاتصال. وقد سبق لنا وأشرنا الى عدد من سماتها . وعلينا التركيز على الكفاية الوراثية لدى مُرسِل هذه المثيرات ومتلقيها . ذلك ان هذه المثيرات تعبّر عن النظام الوراثي وتنتمي الى النمط الظاهر الخاص بالحيوان الخاضع للدراسة . وتبقى امكانية اضافة عناصر تشريطية جديدة ضعيفة في هذا المجال ، الا اذا استثنينا انماط « التعلّم الارغامي » المحدَّدة الى حد كبير بالنظام الوراثي . اخيراً ، تكون هذه الاشارات مرتبطة « بالهنا والآن » اي بالوضعية وبحاجات الحيوان . بعبارة اخرى ، لهذه الاشارات مجرّد وظيفة تعبيرية . فهي غير قصدية ، ولا تمثِّل عنصراً مرجعياً خارج الوضعية . وهذا ما يميّزها جذرياً عن المظاهر العليا للغة الانسانية .

النظام الوراثي والنظام الالسني

وهكذا نستطيع ان نقر ان الحيوانات تتصل فيما بينها بفضل منظومة من الاشارات وحيث تكون القائمة خاصة بكل جنس حيواني او بكل جماعة حيوانية . بعبارة اخرى ، تكون القائمة تعبيراً عن النظام الوراثي تماماً كما هو الحال بالنسبة لهذا التفصيل الشراحي او ذاك . (على كل حال ، رأينا آنفاً ان بعض الخصائص المورفولوجية تستعمل كاشارة) . ويمكن القول ان التعبير العياني لهذا النظام في السلوك الفردي يشكل « الكلام » . والتصرفات النمطية الظاهرة هي كلام النظام الوراثي .

لماذا لا يمتلك الانسان - بما انه ينتمي الى الجنس الحيواني - صميمات نشاط واواليات استيعاب تنتمي هي ايضاً الى النمط الظاهر . تماماً كما

يمتلك نمطاً ظاهراً على الصعيد الجسماني الا انه يصعب جداً دراسة هذه الانماط ، لانها قد دُمجت بنمط الاتصال الخاص بالجنس البشري ، اي اللغة المحكية .

ومن البديهي القول انه من الاسهل ملاحظة صميمات النشاط هذه لدى الاطفال . والعلاقات بين الام واطفالها تُدخل تصرّفات اتصال يمكن تحليلها بطريقة مُرضية باستعمال النماذج المقارنة . ويجد المرء في ابحاث شبيتزSPITZ حول تكوين الاتصال مثلاً ممتازاً ومقنعاً عن هذه الوقائع .

لكن الاتصال الانساني يتجاوز بكثير الادوات النمطية الظاهرة ليستعمل هذه الاداة الاجتماعية التي تتجسّد في اللغة . والاستعمال الفردي للغة ـ اي الكلام ـ هو شكلها الاكثر تحديداً . وهكذا اذا كانت التصرفات النمطية الظاهرة تخضع لقواعد النظام الوراثي ، فان التصرّفات اللغوية ستخضع ، هي ، لنظام آخر ، وهو النظام الالسني ، الاجتماعي . الثقافي والمتعلّم .

سيكون الانسان اذاً صلة النظامين الوراثي والالسني . كما سيكون في الوقت نفسه موضعهما ووكيلهما . وتبقى مسألة تحديد العلاقات بين النظامين .

سنوقف الآن هذه التأملات الاولية في السيمياء المقارنة . ولكن اذا تقبّل المرء اطروحتنا القائلة ان النظام الوراثي يتيح الحياة وان النظام الالسني يتيح الفكر ، فلا يمكنه الا ان يقتنع ان الكلمة الحية تصدر عن النظامين معاً .

الالسنية ، علم النفس اللغوي ، وعلم النفس

لقد بيّنت لنا الاتولوجيا المقارنة ان الحيوانات تتصل فيما بينها ، ولكنها لا تتكلّم . اما النشاط الاتصالي لدى الجنس البشري ، فيستعمل الكلام بكثرة .

قد يتوقّع المرء قبلياً ان علم النفس البشري قد اهتم منذ فترة طويلة ـ ان على الصعيد التطبيقي او النظري ـ بهذه الوظيفة الكلامية المتّسمة بالخصوصية ، والتي ، بفضلها يُسمّى الحيوان الناطق « انساناً » . الا ان هذا الامر لا يظهر الا فيما ندر : فعلى الصعيد النظري ، لا يزال علم النفس اللغوي في بداياته . وعلى الصعيد التطبيقي ، يكون النفساني اختصاصياً بالاتصال ، وبالتالي باللغة ؛ الا انه جهل ذلك لفترة طويلة .

فاذا عدنا الى رسمة شانون ، نلاحظ ان النفساني هو في وضعية اتصال . وسيكون عمله تلقي رسائل عليه استعمالها ، وفك رموزها لتحليلها اخيراً تحليلاً ما ـ وراء ـ لغوياً Métalangage (لغة تتخذ من لغة اخرى موضوعاً للدرس) موجّهاً اليه (اي للنفساني) او الى المفحوص .

وستُطرَح هكذا ثلاث مسائل اساسية ومترابطة . المسألة الاولى هي مسألة سيميائية : تعلم التعرّف على العناصر التي يصدرها المفحوص : المسألة الاخرى هي مسألة ترميزية : تعلم فهم هذه العناصر . اما المسألة الاخيرة ، فترتبط بما ـ وراء ـ اللغة . تعلّم تحليل العناصر هذه دون الاسهاب ، بل باللجوء الى لغة جديدة تنطلق من اللغة التي تشكّل موضوع الدرس ، فتعطيها دلالة انبائية يمكن ايصالها .

المظهر السيميائي

السيمياء عبارة استُعملت تقليدياً ـ ومنذ القدم ـ للاشارة الى دراسة الاعراض التي ، انطلاقاً منها ، يتم صياغة تشخيص الامراض . وقد اضحى استعمال هذه العبارة شائعاً بفعل تأثير الالسنية المعاصرة . وهكذا حدَّد الالسني فردينان دي سوسور Ferdinand de SAUSSURE السيمياء بانها « علم عام يدرس منظومات العلامات واللسان ابرزها » . وقد اعطى السني آخر ، ل . ج . برتيو.L . J. PRIETO التحديد التالي : « السيمياء علم يدرس المبادىء العامة التي تحكم سير منظومات العلامات (او انظمة الاشارات) ويقوم بتصنيف هذه المنظومات » . فاذا اعتبرنا ان عمل النفساني يمكن في التقاط الاشارة (او الاشارات) التي يصدرها المفحوص (او المفحوصون) واستعمالها ، نفهم مباشرة ان وجود علم سيميائي لا يمكنه الا ان يثير اهتمام النفسانيين . حتى ان النفساني قد يتساءل عن موقعه بالنسبة لهذا العلم : الا يكون علم النفس الا مجرَّد شكل من أشكال هذه السيمياء العامة التي اعلن عنها دي سوسور ؟

وافضل طريقة للاجابة على هذا السؤال تكمن في توضيح وجهة نظر دي سوسور نفسه حول هذه المنظومة المتميزة ، اي اللسان . وخاصة ان بعض الكتاب المعاصرين مثل ر . بارت R . BARTHES يرون ان « الالسنية ليست جزءاً ، ولو متميزاً ، من علم العلامات العام ؟ بل ان السيمياء جزءً من الالسنية »(1) .

(1) لا يمكننا في هذا المجال أن نسهب في شرح السيمياء أو الألسنية . نكتفي فقط بالاشارة الى القارىء لما يكون النفساني معنياً في الوقت الحاضر بهذه المجالات العلمية . ثم أن العناصر التي نشير اليها لا ترتبط بنظرية دي سوسور فقط ، بل هي أيضاً عناصر « بنيوية » . ذلك أننا نستعمل أيضاً تحديدات أو أفكاراً لمارتينيهMartinet ، وبارتBarthes ، الخ .

اللسان والكلام

لا بد بادىء بدء من التمييز بين اللسان والكلام . اللسان هو مجرّد موضوع اجتماعي . وهو المجموعة المنظمة للاصطلاحات الضرورية للاتصال والمستقلة تماماً عن مادة الاشارات التي تؤلفها . اما الكلام ، فهو مجرّد جانب فردي من اللغة . هو فعل فردي حيث يتم الانتقاء والتجسيد . وبفضل الكلام يستطيع الفرد المتكلّم ان يستعمل نظام اللسان للتعبير عن فكره الشخصي .

وهذا التمييز الثنائي بين اللسان (كيان مستقل يتجاوز الفرد) والكلام (الاستعمال العياني من قبل الفرد للسان) هو تمييز اساسي بالنسبة للعالم السيميائي . ويتّخذ هذا التمييز اشكالاً عديدة ومتشابهة الى حدّ ما : نظام اشارات / رسالة؛ صميمة / استعمال. وهكذا يعلن ر . بارت عن مبدأ اساسي للسيمياء : « سنسلّم اذاً بوجود مقولة عامة تشمل كل منظومات الدلالة . وبانتظار عبارات افضل ، سنحتفظ هنا بعبارتي اللسان والكلام حتى لو طُبِّقتا على اتصالات لا يكون جوهرها جوهراً لفظياً » .

الا ان الالسنيين يهتمون بوقائع اللسان ، ولا يهتمون بوقائع الكلام . فيمكن تعيين موقع النفسانيين على النحو التالي : هم الذين يهتمّون بالكلام[1] .

---

(1) لا بد من تمييز « الكلام » عن الصوت ، « الصوت » هو المادة الفيزيائية التي تشكّل سناداً للكلام . وهو موضوع اختصاص علماء الأصوات .

علامة دي سوسور .

اذا كان اللسان منظومة علامات ، فكيف يمكن تحديد العلامة ؟ ان كل نظرية للعلامة هي نظرية معقّدة ، وخاصة ان المصطلحات تختلف باختلاف الكُتّاب .

تتحدّد العلامة بالنسبة لدي سوسور باتحاد دال ومدلول ، اي باتحاد صورة سمعية ومفهوم . وهكذا تكون العلامة وحدة ذات وجهين ، ويمكن مقارنتها بصفحتي ورقة ، وإن اختزل دي سوسور ـ غالباً ـ العلامة الى الدال والى الدال وحده .

ومهما يكن الامر ، لا بد من التمييز بين اربع مقولات :

ـ الصوت الفيزيائي (وهو من اختصاص علم الاصوات)

ـ الصوت المُدرك (الصورة السمعية) . الا ان طبيعته لا تعود فيزيائية ، بل فونولوجية .

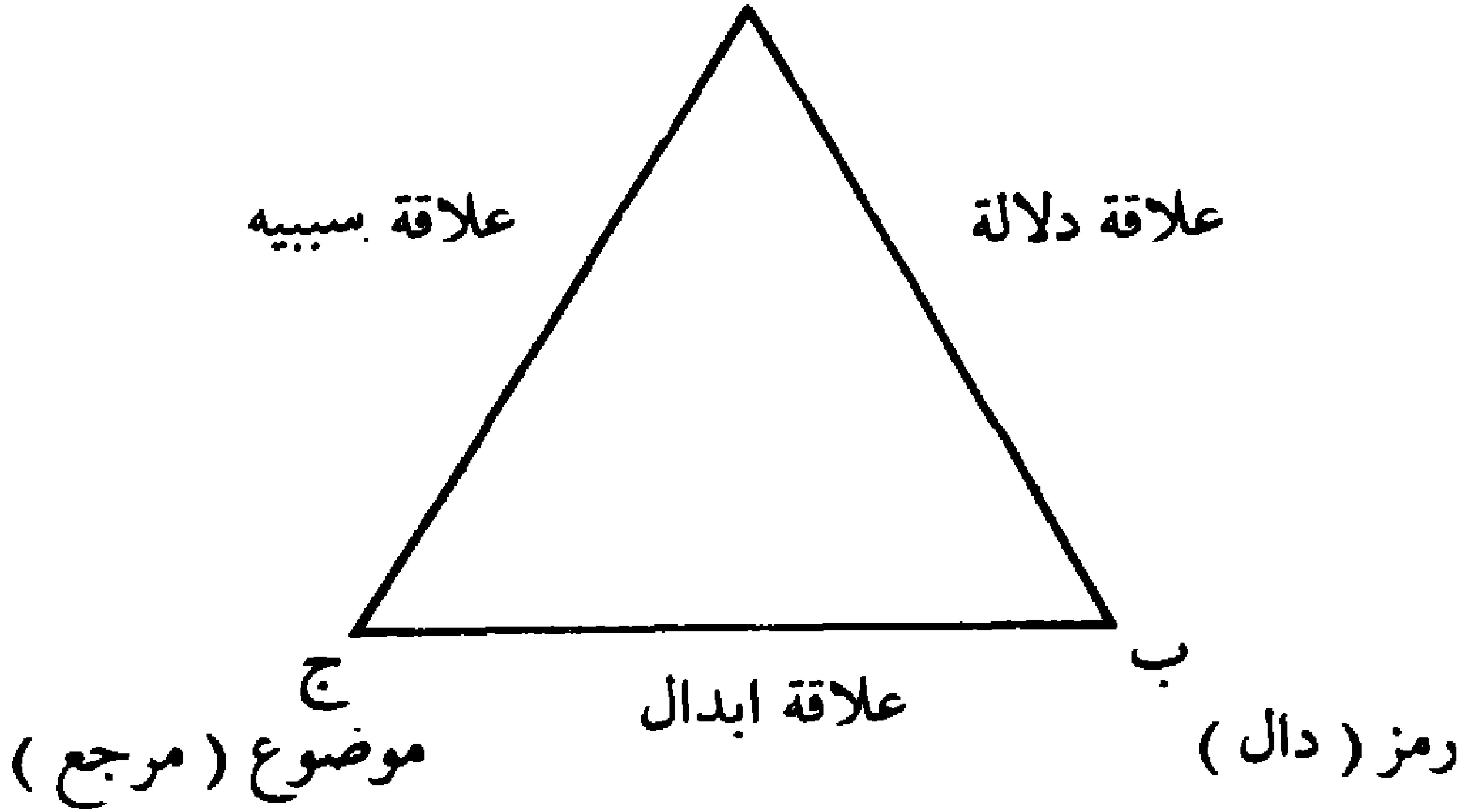
ـ المفهوم او المدلول . وهو يرتبط بالصوت المُدرك بسياق الدلالة . ودراسته هو من اختصاص علم الدلالة .

ـ المرجع الموجود خارج اللسان ، اي الشيء الممَثَّل والذي يرتبط بالعلامة بسياق ابدال او ترميز .

ويمكن تمثيل علاقات العبارات الثلاث الاخيرة تبعاً لرسمة مثلّثة اقترحها اوغدن OGDEN وريتشاردز RiCHARDS (1) ، وهي رسمة نكمّلها بعبارات دي سوسور .

---

(1) ـ وقد وصفها في الواقع كتّاب اقدمون كما رسمها ايضاً توما الاقويني .



ولعلامة دي سوسور سمتان اساسيتان : الاعتباطية والخطّية

ـ الاعتباطية : لا توجد علاقة طبيعية بين الدال والمدلول (الا في حالات الكلمات الصوتية) . فالعلاقة بين /ثَ وْ ر/ و « ثور » غير معلّلة .

ـ **الخطّية** : ان دال العلامة سمعي : ولذلك ، فهو يتحقّق في الزمان وينتمي بالتالي الى سلسلة التتابعات الزمنية : السلسلة النحوية حيث يكون موقعه خاضعاً لقواعد التركيب . ولكن يمكن استبداله بعملية ابدال حسب محور بابي(1) . وتنتمي العلامة اذاً الى منظومة

---

(1) ـ وهكذا تنتمي كل وحدة من السلسلة المحكية الى مجموعتين . المجموعة الاولى هي المجموعة الخطّية : اي المجموعة النحوية حيث تكون هذه الوحدة في تباين مع الوحدات التي تسبقها وتلك التي تليها . اما المجموعة الثانية ، فهي مجموعة فرضية : اي المجموعة البابية حيث تتعارض الوحدة مع الوحدات الاخرى التي كان يمكن استعمالها بدلاً منها .

(قائمة وقواعد) تشكل اللسان . وتستمد العلامة ـ في كل لحظة ـ قيمتها من هذا اللسان . والقيمة والدلالة مقولتان مختلفتان . فالقيمة تنتج عن علاقات العلامة بعلامات اللسان الاخرى . اما الدلالة ، فتصدر عن علاقات الدال بالمدلول .

هذه المقولات (لسان / كلام ، علامة / منظومة ، دال / مدلول) هي مقولات مركزية وهي في اساس السيمياء البنائية (او ما سماه البعض « البنيوية ») . وهكذا يكتب ف . وال F . WAHL . « سنقول ـ وهذه هي الطريقة الوحيدة لتجنّب اللبس ـ ان البنيوية تضم علوم العلامة ، ومنظومات العلامات . فالوقائع الانانسية الاكثر تنوعاً يمكن ان تدخل في هذا الميدان شرط ان تدخل بواسطة وقائع اللسان ـ وان تُتّخذ في مؤسسة لمنظومة من نمط دال / مدلول وان تنسجم مع شبكة اتصال ـ حيث تتلقّى بنيتها » . وانطلاقاً من هذا الواقع ، نرى بسهولة لما يكون النفسانيون معنيين بالموضوع . فهم معنيون بهذا الموضوع لعدة اسباب : ذلك ان الالسنيين يلجأون غالباً الى نظرية نفسانية ـ وإن على الصعيد الضمني ـ وهم ينتظرون بالتالي مساهمة النفسانيين . ثم ان النفسانيين والالسنيين يهتمّون بالاتصال . لذلك لا بد من تحديد ميدان كل من المجالين (علم النفس والالسنية) ومساهماتهما .

ان الفرضيات النفسانية الخاصة بالالسنيين عديدة ، ولا تتوافق دائماً ، رغم كل تحفظات التيارات المعاصرة .

بكل تأكيد ، لم تعد اللغة تُحدَّد اليوم كتعبير عن الفكر ، بل كأداة للاتصال بين الكائنات البشرية . لكن ارجاع دي سوسور الى « المدلول » هو ارجاع ذهني ، وإن اضاف البعض انه ـ اي المدلول ـ

غير منفصل عن الدال . ويعلن السنيون عديدون انه يمكن التخليّ عن هذا المفهوم ؛ او على الاقل ان الالسني لا يهتم الا بالدلاّت وحدها .

على كل حال ، ما هو علـم الدلالـة ؟ هل هو غـير البحـث عن علاقات مختلف علامات لسان معينَ ؟ و « دلالةَ » دال معين تُعطى في القاموس بواسطة سلسلة دالة اخـرى . فلنأخـذ حالـة الاتصـال بـين متكلمين يكون احدهما بصيراً والثاني ضريراً ، ويتكلّم الاثنان اللسان نفسه . فدلاّت منظومة العلامات تكون هي نفسها بالنسبة للاثنـين . ولكن ما هو الحال بالنسبة للمدلولات ؟(1) .

وتجدون احياناً بعض الألسنيين يتذرّعون بان « قصد الاتصال هو العنصر الحاسم الذي يسمح بالتمييز بين الاتصال و «اللااتصال» . كما انه العنصر الذي يسمح بتحديد نمط الاتصال الـذي يواجهـه المرء » . ويميّز ج . مونان Mounin . في كتابه « مقدّمـات في الالسـنية » «Clefs pour la linguistique» بين اللغة والاتصال . «ويكمن التمييز الاول والاساسي في فصل الظواهر التي تتضمن قصد الاتصال (وإن لم يكن من السهل علمياً البرهنة على وجود قصد محدّد) عن تلك التي لا تتضمن اي قصد للاتصال ! ثم يعلن انـه في غياب هذا التمييز « لـم يستطع الفلاسفة منذ قرنين ان يقولوا ما هي السمات التي تميّز الالسن الطبيعية للكائنات البشرية عن الاتصال الحيواني » . واذا رجع القارىء الى مسـاهمات الاتولـوجيا ـ وقـد ذكرنـا هذه المسـاهمات ـ سيدرك ان

(1) ـ لا ندّعي في هذا المجال الدخول في تفاصيل للمسائل المعقدّة الخاصة بعلم الدلالة . نكتفي بالاشارة الى ان هذه المسائل معقّدة وانه من السهل ادراكها ـ إن لم يكن من السهل حلّها .

الارجاع الظواهري الى القصدية لا يمكن ان يكون حاسماً . اذ ان ارجاعاً كهذا يتضمن اعطاء الوعي (والوعي مفهوم يطرح اشكالية) اهمية في الاتصال في حين ينفي علم النفس المعاصر الاهمية هذه . ومن البديهي أن يرسل المتكلّمون غالباً معلومات لا يقصدون ايصالها . وتكون هذه المعلومات كاشفة لمواقفهم العميقة أكثر بكثير من الخطاب الظاهر . والحق ان هذا الامر يهم النفساني أكثر مما يهم الالسني ، ذلك ان المسألة ترتبط بالكلام ولا ترتبط باللسان . وفي المقابل ، رأينا أن التمييز الاكثر وضوحاً بين الاتصال البشري والاتصال الحيواني يرتكز الى دراسة وظائفية . وقد باشرها ك . بوهلر K. BUHLER في تمييزه لثلاث وظائف : التعبير ، والمناداة ، والتمثّل . وسنعود لاحقاً الى هذه الوظائف .

ـ فإذا استثنينا « لغة النحل » التي تبدو في نهاية المطاف محكومة(2) ، نلاحظ أن الوظائف الموجودة في الاتصالات الحيوانية هي المناداة والتعبير ، والمناداة والتعبير فقط . ذلك أن الوظيفة المرجعية (المسماة أيضاً الوظيفة الرمزية) هي وقف على الاتصال البشري . وإذا كان هذا الأمر لا يظهر دائماً بوضوح ، فذلك يعود الى أن الترميز الألسني قد توصّل لدى الجنس البشري الى بناء تعبير النظام الوراثي .

ما نود قوله هو ان التصرّفات حيث تهيمن الوظائف التعبيرية والمساوية لصميات النشاطات الخاصة بالحيوانات ستظهر هي ايضاً لدى

---

(2) ـ « محكومة » بالمعنى الالسني للكلمة ، اي انها « تماثلية » وليست اعتباطية .

الجنس البشري تحت غطاء الترميزات الاجتماعية ـ الثقافية ، او حتى ـ غالباً ـ في ظل النظام الالسني . وهكذا هو الحال بالنسبة لكل الشعائر الحركية الخاصة بالخضوع : المصافحات ، والسلامات ، والابتسامات ، والايمائيات . . . الخ(1) ، وايضاً الشعائر الكلامية : « صباح الخير ، احتراماتنا ، شكراً ، انا في خدمتك » . . . الخ . ويمكن ان نضيف « المحادثات » الأرصادية (المختصّة بالحالات الجوية) وِالهكعية : « الطقس جميل اليوم » . . . « كيف حالك » . . . ونذكر ايضاً الروايات المختلفة حول عمليات التوليد والامراض العائلية . . الخ . فنحن هنا تجاه عناصر تحل محل الكلمات المتبادلة يومياً وهي عناصر « استهلاكية » اكثر بكثير مما هي « إعلامية » او « إنبائية » . قصدنا بذلك أن وظيفة هذه العناصر تكمن في التعويض عن حاجة الاتصال التعبيري لدى المتكلّمين . ويبدو ان امبريالية النظام الالسني تبرّر فرضية بارت حول اولوية هذا النظام على المنظومات السيميائية الاخرى . وكأن الفهم الانساني ينتظم دائماً ـ وضمنياً ـ تبعاً للانقسام الثنائي لسان / كلام او نظام اشارات / رسالة . ويبدو الامر على هذا النحو : حين يتواجد كائنان بشريان في وضعية اتصال تُستقبل ارسالات الاوّل ككلام بالنسبة للآخر ، وتكون بالتالي تعبيراً عن نظام مفترض وقد اهتمّ بارت باستعمال هذا النموذج في تحليله للانتاجات الاجتماعية ولمنظومة الدُرجة على وجه الخصوص . ونستطيع في هذا المجال ان نعطي مثلاً يهم النفساني عن كثب : الفحص العيادي الطبّي . « فاللسان » (او نظام الاشارات) الخاص بعلم الامراض

---

(1) ـ وسّع د . موريس D. MORRIS الفكرة نفسها في كتابه «Le singe nu », Grasset, 1969

يتجسّد في مؤلّفات علم الامراض الخاصة بمرحلة معيّنة . فالمريض ينطق بمرضه ، ويلتقط الطبيب الاعراض والمؤشرات كعلامات كلامية لمرض يعبّر عن نفسه . ويفك الطبيب هذه الارسالات بالرجوع الى نظام الاشارات ، اي الى المعرفة المنهجية التي راكمها الطب في هذه المرحلة . وبعض المرضى « يتكلّمون جيداً » نظام الاشارات هذا . وهم الذين يشكون من امراض معروفة . والآخرون « يتكلّمون بشكل سيء » . فهم « يقدّمون اعراضاً لا نمطية » . ثم ان البعض لا يصدر الا « تشويشاً » . وهم الذين يُفشلون كل التشخيصات .

الا ان عدد هذا البعض اكثر بكثير مما يفترضه نظام الاشارات . وقد برز موقفان اساسيان : 1 ـ هذا مجرّد « تشويش » . هؤلاء المرضى لا يشكون من شيء . ويطمئنهم الطبيب (او يعتقد ذلك) ، فيقول لهم انهم غير مرضى . كما يطمئن نفسه ، فيعتبر امراضهم امراضاً وظائفية .
2 ـ هؤلاء المرضى ينتمون الى « نظام اشارات » آخر . وهنا تبرز محاولة صياغة الطب النفسدي . إذ يبدو ان الاعراض التي « يرسلها » هؤلاء المرضى ـ في مظهرها التعبيري هي في الواقع « مرجعية » ومساوية لعناصر الكلام الحقيقية ، كما هو الحال في الإقلاب الهسيتري . كما قد ترتبط هذه الاعراض بمنظومات قديمة لم يتم توضيحها بعد بشكل جيّد . والعبارة الشائعة « لغة الجسد » تمثّل هذا الارجاع الحدسي الى النموذج الالسني .

وقد تأسّس الطب العقلي التقليدي على نموذج مماثل . وهناك سيمياء خاصة بالطب العقلي مع « نظام اشارات » لعلم الامراض العقلية .

وتبدو المسألة اكثر تعقيداً في علم النفس . اذ تبرز هنا الحاجة الماسة

لسيمياء عامة . ما نقصده هو ان كل المنظومات السيميائية ستهم النفساني اذا اراد هذا الاخير تحليل الاتصال . وهكذا ، على النفساني في وضعية الفحص النفساني ، ان يكون قادراً على كشف العلامات التي يصدرها المريض على صعيد مختلف القنوات ، وعلى صعيد العلاقات الدينامية القائمة بين هذه العلامات : الكلام ، والصوت ، والحركة ، والايمائية ، والمسافة الحرجة ، وتنظيم المجال ، والثياب ، وطريقة الحلاقة ، ومسحوق التجميل . . . دون ان ننسى العناصر الحركية والمورفولوجية المرتبطة بالنمط الوراثي . وحول هذا الموضوع ، يمكن ان نبدي الملاحظة التالية : يبدو من الصعب قبلياً تحليل كل هذه العلامات . الا ان هذا ما يقوم به كل منا عفوياً - دون ان يدرك ذلك - حين يكون في وضعية اتصال . و « النفساني الجيّد » هو ذلك الذي يكون قادراً على ادراك هذه العلامات واستعمالها ، وعلى فهم الكلمة الموجّهة اليه . ولكن تماماً كما يكون المرء عاجزاً عن فهم مقالة اذا لم يكن ملماً بالقراءة والكتابة وبالقواعد المستعملة ، يتوجّب على كل من يمارس هذه المهنة ان يهتمّ بمعرفة كهذه ولا يستطيع النفساني الا ان يتمنّى التعرّف بشكل افضل على طبيعة الاشارات التي يستعملها في معرفته للآخر . الا انه يبقى القيام بجردة سيميائية في اكثرية الحالات . وفي ميدان الارسالات البصرية مثلاً ، يبدو لنا مباشرة ان معارفنا ما زالت بدائية للغاية . واذا لم نأخذ بعين الاعتبار الا القناة « الحركية » (الايمائيات ، والحركات التي تشكّل جزءاً جوهرياً من الاتصال غير اللفظي) ، سنلاحظ ان طرق التحليل التي نتبعها ليست كاملة رغم كل الجهود التي يبذلها باحثون عديدون ، ومنها جهود « النظرية الحركية » الاميركية التي برزت مع راي بيرد ويستل Ray BIRDWHISTELL

ومدرسته . ويصف هذا الكاتب المتأثر بالتحليل الالسني وحدات صغيرة هي « الحركيات » (المساوية بنيوياً للمفردات) . هذه الوحدات ، في ترابطها فيما بينها ، وفي التحاقها باشكال حركية اخرى ، تشكّل وحدات تنتمي الى نظام اعلى : وهو نظام المفردات الحركية . ويظهر قسم من هذه الحركات في الاتصال (الكلامي او اللاكلامي) وتكون حركات مضخّمة . اي تكون اشكالا لنظام الاشارات الحركية التي يمكن مقارنتها بالمفردات وبتركيبات المقالة . اما المفردات الاخرى المرتبطة بالكلام ، فهي مفردات « فوق - تركيبية » وتكون مفيدة في التشديد على تركيب المقالة . واخيراً ، تكون المفردات الاخيرة مؤشرات حركية مرتبطة باطر صوتية خاصة .

واذا تم الاقرار بان مسألة التحليل قد حُلّت - وهذا ما لم يتم بعد - يبقى علينا ان نقوم بخمس عمليات على صعيد « الكلام الحركي » ، اي على صعيد التعبير الفردي الذي يهم النفساني . والعمليات الخمس هي التالية : الجردة النوعية لمختلف المفردات الحركية المستعملة ؛ الجردة الكمّية (تواتر كل مفردة حركية) ؛ الدراسة التركيبية (التركيب الزمني للمفردات) ؛ الدراسة الترابطية (علاقة هذه المفردات بالظواهر الاخرى ، وخاصة بالسلسلة المحكية) .

فالتحليل السيميائي لكل قناة على حدة سيؤدي بطبيعة الحال الى معرفة الترابطات بين القنوات ، ذلك ان الاتصال هو ظاهرة شاملة . فمعرفة « الانسان الكلي » التي طالما تمنّاها علم النفس المعاصر لا ترضى بان تكون سيكولوجية الكلام فقط ، بل تطمح الى ان تصبح سيكولوجية « الانسان المتكلّم » . اي عليها ان تحلّل الطريقة التي يتحدّد بها الكلام في الاقتصاد العام للتصرّفات وفي اطارها النفس - فيزيولوجي .

ونتقل هكذا من علم تصنيف العلامات الى دراسة قيمتها ، اي ، بعبارة اخرى ، الى دراسة موقع كل من العلامات في المنظومة الشاملة .

وهنا ايضاً لا تزال الابحاث في بداياتها ، الا انها تبدو مهمة للغاية في علم الانماط البيولوجية وفي الطب النفسدي . فالفرد الذي وُضِعَ في وضعية فحص سيتكيَّف باستجابات نباتية (ايضية ، وحشوية ، وعرقية) وحركية (حركات ، تصلّبات ، ايمائيات) وعقلية لا واعية او واعية (وتكون هذه الاستجابات الاخيرة قابلة للتعبير اللفظي) . وتكون هذه المستويات المختلفة متآزرة . لكن هذا التآزر يكون على مستويات مختلفة من الانسجام والاقتصاد . ومن المهم جداً ان يأخذ العياديون هذا الامر بعين الاعتبار . بكل تأكيد ، لقد استعمل النفساني « الجيِّد » دائماً الاشارات غير اللفظية بطريقة حدسية ، ودون ان يكون واعياً لذلك . فعناصر عديدة قد حدّدت « انطباع » هذا النفساني ، كما اثّر هذا الانطباع على تأويل المواد اللفظية .

الا ان الوسائل التقنية التي نملكها اليوم ـ ونذكر على وجه الخصوص مسجّلات الذبذبات والتسجيلات المغناطيسية للصوت والصورة ـ تسمح بدراسة أدَقّ لكل ما يجري على مختلف المستويات خلال الفحص النفساني .

فالتخطيط المتعدّد يسمح مثلاً بتسجيل ما يلي (رسمة رقم (3)) :

ـ على المستوى الحركي : النشاط العام ، وحركات العينتين (ومن وجهة نظر نوعية ، يتم تسجيل الايمائيات والحركات بواسطة المغنيط التسجيلي) .

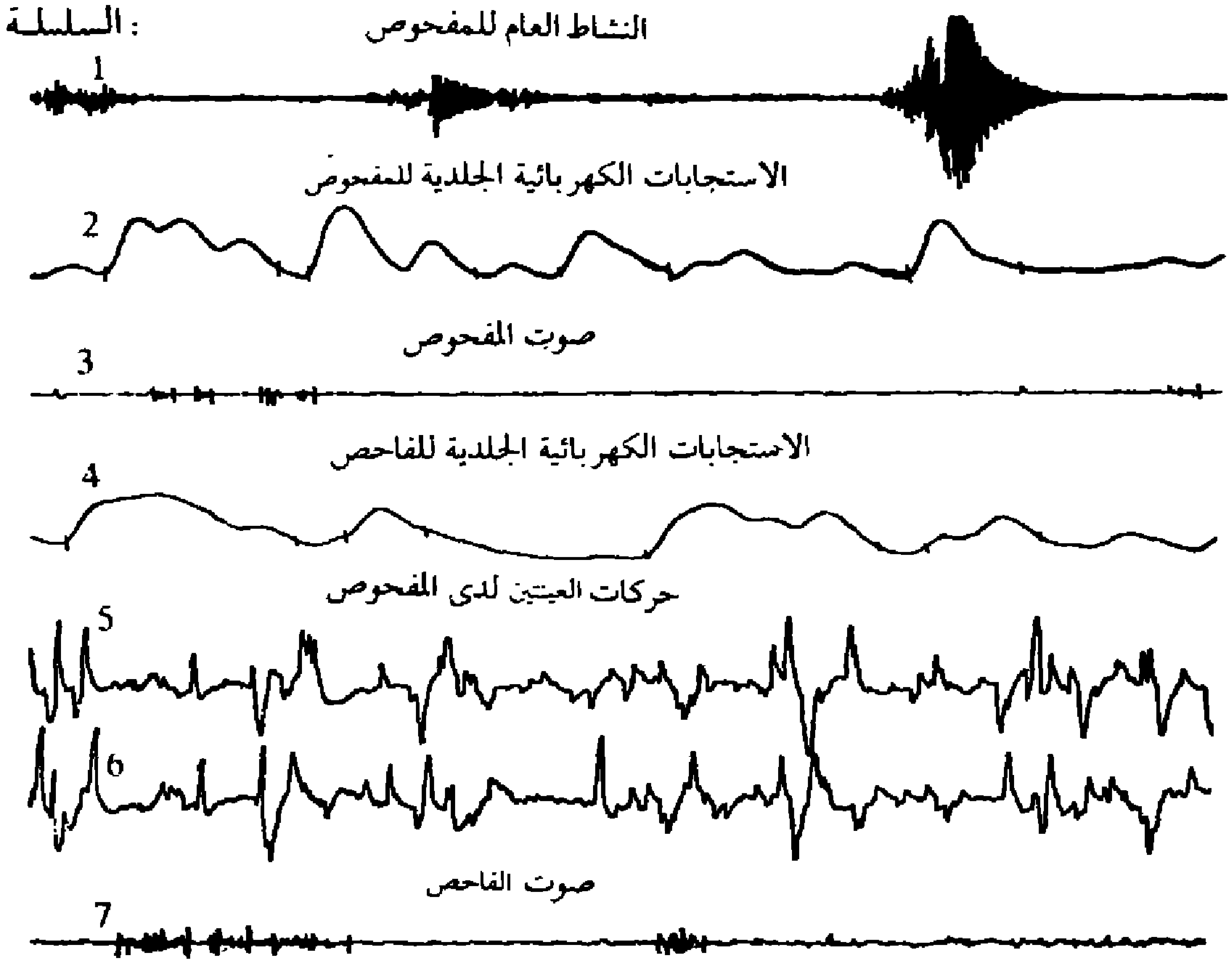
ـ على المستوى النباتي : التغييرات الكهربائية للجلد(1) (الاسـ الكهربائية الجلدية ، نظم خفقان القلب)

ـ على المستوى اللفظي : الصوت (والكلام على المسجِّل) .

وهذا لا يسمح لنا فقط بالتعرّف على ما يجيبه الفرد خلال رائز نفسي او مقابلة ، بل يسمح لنا ايضاً بموضعة هذه الاجابة في جدول استجاباته العامة : اي بمعرفة ما يسبق هذه الاستجابات ، وما يليها ، وما يجري في فترات الصمت ، وهكذا ، يمكن وصف عدد من نماذج الاستجابات الواحدة او المتعدّدة ، يرافقها تفكك وصدّ وصدمات . ولو لم تكن هذه التقنيات موجودة ، لبقيت هذه الظواهر ـ التي تغني المعلومات التي يوفّرها الفحص ـ مجهولة تماماً . ومن الممكن أيضاً أن نخضع هذه المعطيات الى التحليل الرياضي وأن نحدّد نماذج الاستجابات الخاصة بالفرد . وتجدر الاشارة الى أن المسائل التي يطرحها تحليل المتواليات لسلوك الاتصال تكون قريبة جداً من المسائل التي تُطرح في التحليل الاثولوجي كما عرضاه، آنفاً : أي تحديد « الوحدات القاعدية » وبناء قائمتها وتوضيح تركيبها . وعلى كل حال ، نصل الى بيانات يمكن مقارنتها ، ونعطي هنا على سبيل المثال بياناً اخترناه من بحث قام به جـ . داهان G. Dahan حول نماذج خاصة بفرد يخضع لرائز نفسي (رائز رورشاخ) (رسمة رقم 4) .

---

(1) ـ يسمح تخطيط الجلد الكهربائي بالنقل البياني لتغييرات المقاومة والطاقات الجلدية . وتشكل هذه التغييرات الاستجابات الكهربائية الجلدية ، هذه الاستجابات التي كانت تُسمّى في السابق « المنعكسات النفس ـ غلوانية » .

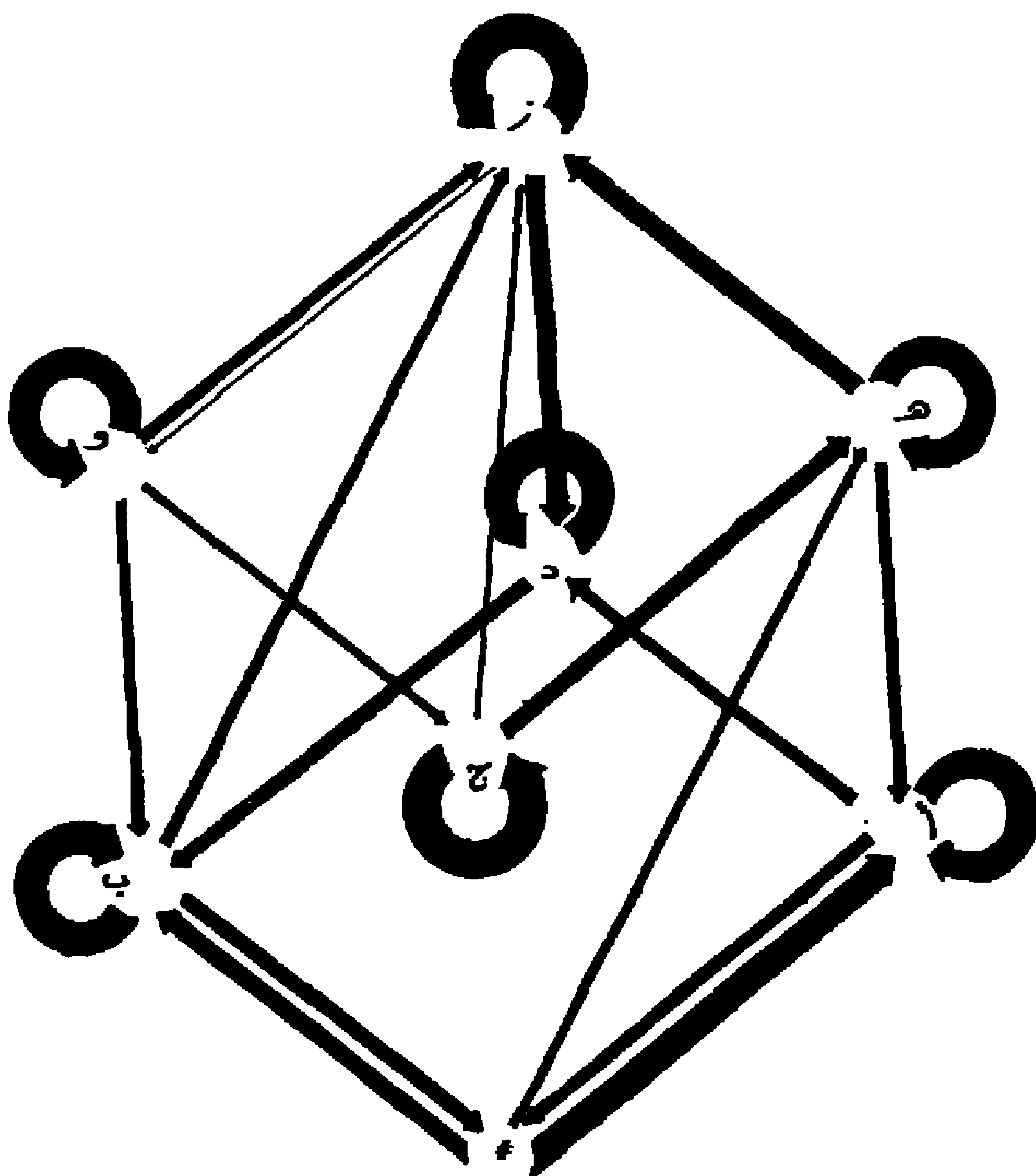


رسمة رقم 3 : تسجيل متعدّدة البيانات خلال تطبيق رائز رورشاخ .

واذا عاد القارىء الى بيان النشاط الزواجي الخاص بسمكة « ابو شوكة » سوف يُدهَش بتقارب النماذج المستعملة على الرغم من وجود اختلاف كبير بين نمطي السلوك الخاضعينْ للدراسة . وقد تبدو هذه المناهج في الوقت الحاضر ترفاً مكلفاً . ولا بد من الاعتراف انها ـ اي هذه المناهج ـ وقفٌ على الباحثين .

الا ان الابحاث السيميائية تكون ، من جهة ، مثمرة وهامة . ذلك انه يمكن استعمال اكتشافاتها « عيادياً » ، دون ان يلجأ النفساني

الى اية اجهزة . قصدنا بذلك النفساني المطلع على هذه الابحاث والذي سيوجّه انتباهه الى بعض العلامات التي لم يستعملها ولم يدركها حتى الآن . من جهة اخرى ، من المحتمل ان تترك هذه الابحـاث ميدان البحث النظري لتُستعمَل على الاقل في مراكز الفحص الكبرى . فلماذا يعترف الفرد بفائدة جهاز مكلف للفحص الاشعاعي مثلاً ، ويعتقد في



رسمة رقم4 : تصرف فرد يخضع لرائز رورشاخ كما دُرِس تبعاً لتسجيل متعدّد البيانات .

الوقت نفسه انه من الممكن فحص الشخصية بسهولة وبتكاليف اقل ؟

غياب المتغيّر : ≠ ؛ النشاط العام وحده : أ ؛ الاستجابات الكهربائية الجلدية وحدها : ب ؛ الكلام وحده : ج ؛ النشاط العام + الاستجابات الكهربائية الجلدية : د ؛ النشاط العام + الكلام : ه ؛ الاستجابات الكهربائية الجلدية + الكلام : و ؟ النشاط العام + الاستجابات الكهربائية الجلدية + الكلام : ز .

تتناسب سماكة الاسهم طرداً مع احتمالية الانتقال من نقطة الى اخرى (تبعاً لداهان ، 1969)

مهما يكن الامر ، ستؤدي هذه المرحلةالسيميائيةالى تشخيص بنيوي . اي انها ستسمح بتحديد كيف « يتكلّم » الفرد او كيف « يعبّر » عن نظام الاشارات او انظمة الاشارات . والمرحلة الثانية هي مرحلة التأويلية .

المظهر التأويلي :

السيمياء علم العلامات . وعلم الدلالة هو دراسة دلالة هذه العلامات . ولا بد من الاعتراف انه اذا كانت الالسنية المعاصرة ـ وهي قالب السيمياء او من مشتقّاتها ـ قد تطورّت كثيراً ، فان علم الدلالة لم يتطور بالقدر نفسه ، وان كان من صلب اهتمامات باحثين عديدين .

ونعتقد انه لا بدّ في هذا المجال ايضاً ان نلجأ الى التمييز العلمي بين اللسان والكلام . فتماماً كما يقول تروبسكوي Troubeskoy ، « ان الفونيمات هي اصوات اللسان وموضوع الفونولوجيا ، في حين تكون

اصوات الكلام موضوع علم الاصوات الكلامية » . ونستطيع القـول ان العالِم السيميائي ، يهتم بعلامات الألسن (أنظمة الاشارات) وان المتخصّص بعلم الدلالة يهتم بدلالتها ، في حين يهتم النفساني بعلامات الكلام (الرسائل) وبدلالتها الخاصة ، أي معناها .

فخلافاً للالسني وللعالِم السيميائي ، يكون النفساني معنياً بشكل أساسي بالسيمياء وبدلالة الكلام ، ولا يكون معنياً بدلالة اللسان .

الفهم او كشف المعنى ـ انطلاقاً من المقالة التي تبدو ظاهرياً كسناد للدلالة ـ هو من الوظائف الاساسية للنفساني . ويمكن ، تبعاً لريكور Ricoeur ، ان نُطلِق على هذه الوظيفة اسم الوظيفة التأويلية(1) .

« سنقصد دائماً بعبارة « تأويلية » نظـرية القواعـد التـي تتحـكم بشرَح ، اي بتفسير نصّ معين او مجموعة من العلامات يمكن اعتبارها بمثابة نص » ولكن ب . ريكور يشدّد على ان التفسير ليس مجرّد فهـم للدلالة ، انما هو حل الرموز . والرمز ، في رأي هذا الكاتب ، هو كل « تعبير السني يتضمّن معنيين ويتطلّـب تفسيراً » . « وفي كل علامـة ، تكون وسيلة النقل حاملة لوظيفة دلالية تجعلها مسـاوية لشيء آخـر . ولكنني لن اقول انّي افسرّ العلامة حين افهم ما تقوله . اذ يرجع التفسير الى بنية قصدية من الدرجة الثانية والتي تفترض انه يتم تأسيس معنى اوليّ حيث يهُدَف الى شيء ما اوّلاً ، وهو الشيء الذي لم يهُدَفْ الا اليه » « ولكن ـ كما يضيف الكاتب نفسه ـ لنـكن حذرين . هذه الرمـوز لا توجد الى جانب اللغة كقيم تعبير مباشر او كأشكال تُدرَك مباشرة . ذلك ان هذه الحقائق تكتسب بعدها الرمزي في عالم المقالة » .

---

(1) Paul Ricœur, De l'interprétation, essai sur Freud, Edit. du Seuil, 1965

ونعتقد انه من حقنّا ان نقارن بين وجهة نظر ريكور ووجهة النظر التـي عرضناهـا في بداية هذه الفقـرة . فلكل كلمـة دلالـة تكون من اختصاص علم الدلالة ، اي انها تكون مرتبطة باللسان وتسمح بترجمتها الى السن اخرى . الا ان لكل كلام معنى خاص بالاتصال العياني . اي انه لا يمكن ان نكشف هذا المعنى الا بربطه بالوضعية العيانية وبالسمات الخاصة بالمتكلمينّ . وتبعاً لطبيعة المقالة ، سترتفـع الى حدّ ما علاقـة الدلالة بالمعنى . ففي المحادثات التقنية ، ستكون الكلمات المتخصصّة غنية بالدلالة الدقيقة ، ولكنها ستفتقر الى المعنـى كما نفهمـه نحـن . فالحلم (المحكي) ، والنكتة الذكية ، والنتاج الغني ، غنية بالمعاني ؛ اما الدلالة ، فستكون احياناً ملتبسة للغاية . وعلى كل حال ، اعطـى فرويد في كتابه « تفسير الاحلام » مثلاً عن الوظيفة التأويلية : وهو مثل الحلم . فتمييز فرويد بين « المعنى الظاهر » و « المعنى الكامن » للحلم يتناظر ـ على ما يبدو ـ مع تمييزنا بين الدلالة والمعنى . وفي هذا المجال ، نذكر ان رواج النظرية التحليلية في اوساط النفسانيين والاطباء العقليين المعاصرين ناتج عن ان هذه النظرية هي اوّل من وفّر حتى الآن المنظومة المتماسكة الوحيدة التي تسمح بتأويل فعّال .

ويمكن اللجوء الى مقولتين تقليديتين لفهم التمييز القائم بين الدلالة والمعنى ؛ وهما مقولتا **التعيين والتضمين** .

مقولة التعيين تتناظر عملياً مع مقولة الدلالة . ذلك انها تُعطـى ـ بالنسبة لكل علامة السـنية مثـلاً ـ في القامـوس . وتـكون التعيينـات مشتركة بالنسبة للناطقين باللسان نفسه ، وهذا ما يسمح لهم بالتفاهم . وبفضل التعيين ، تكون الترجمة من لسان الى لسان آخر امراً ممكناً .

ومقولة التضمين اكثر تعقيداً . ذلك انها تشير الى « كل ما في استعمال كلمة ، لا ينتمي الى تجربة كل مستعملي هذه الكلمة في هذا اللسان » (مارتينيةMartinet) وتشير هذه المقولة ايضاً الى « العوامل الانفعالية والشخصية للفهم » (هيلغارد Hilgard) . فسيكون للعلامة«13» مثلاً تعييناً واضحاً بالنسبة لمجموعة السكان ، الا ان تضمينها سيكون اكثر غموضاً بالنسبة للافراد المتطيّرين . ويمكن استعمال عدة وسائل لتحديد التضمين . سنكتفي في هذا المجال بذكر وسيلتين من هذه الوسائل وهما : « المفرِّق الدلالي » لاوسغود Osgood ، ورائز « التداعيات المثارة »ليونغ Jung .

ويكمن المفرِّق الدلالي لاوسغود في اقتراح علامة للمفحوص ، ثم في الطلب منه ان يضع اشارة على سلسلة من السلالم تتضمّن سبع نقاط تم تأسيسها استناداً الى ازواج متناقضة من النعوت . فلنأخذ على سبيل المثل العلامة التالية :

أب

	1	2	3	4	5	6	7	
سعيد								حزين
قاسي								لينّ
بطيء								سريع
الخ								

وبالنسبة للسلّم الأوّل «سعيد- حزين » ، ستعني اشارة الصليب الموضوعة تحت العدد«1» ما يلي : « سعيد جداً » ؛ وتحت العدد«2» « سعيد بما فيه الكفاية » ؛ وتحت العدد«3» : « سعيد قليلاً » ؛ وتحت العدد«4» : « لا سعيد ولا حزين » ؛ وتحت العدد«5» : « حزين

قليلاً » ؛ وتحت العدد«6» : « حزين بما فيه الكفاية » ؛ وتحت العدد «7» : « حزين جداً » .

والتحليل العاملي للنتائج التي تم الحصول عليها ـ انطلاقاً من دراسة شعوب مختلفة ـ قد سمح لأوسغود باكتشاف ان التضمين يتنظّم تبعاً لثلاثة محاور عاملية أُطلِقَ عليها التسميات التالية : ـ عامل التقييم (ويتميّز بسلالم من نوع حسن ـ رديء ؛ ايجابي ـ سلبي ؛ مستحب ـ غير مستحب ؛) ـ عامل القوة (قوي ـ ضعيف ؛ ثقيل ـ خفيف ؛ قاسي ـ لينّ) ـ عامل النشاط (بطيء ـ سريع ؛ نشِط ـ فاتر ؛ عصبي ـ هادىء . . . الخ) .

وهكذا يمكننا القول ان للكلام او العلامة مظهران : المظهر الاول هو مظهر تعييني (فللكلام والعلامة التأثير نفسه على كل من يفهمها) . والمظهر الآخر هو المظهر التضميني (فللكلام والعلامة آثار تتغيرّ تبعاً لبعض العوامل الانفعالية والشخصية للفهم) . وتسمح هذه العوامل الثلاثة المتعامدة بتحديد « مجال دلالي » حيث يمكن موضعة العلامات كلها . وندرك هكذا وجود تضمينات مشتركة لبعض الجماعات وتغيرّات فردية تختلف من حيث اهميتها . وهكذا سيكون الاتصال بين الافراد ممكناً الى حد ما تبعاً لتناظر المجالات الدلالية ولتقارب التعيين والتضمين بالنسبة للمتكلمْين .

فلنذكر بعض الامثلة البسيطة المستوحاة من أوسغود نفسه :

أ ـ اتفاق تعييني مع اتفاق تضميني :

المُرسِل : « اعطني تفاحة »

المتلقي : يعطي التفاحة

المُرسِل : شكراً .

ب ـ اتفاق تعييني دون اتفاق تضميني

الشخص الاول : « ان ماك كارثي ، العضو السابق في مجلس الشيوخ ، كان رجلاً محترماً .

الشخص الثاني : « افهمك ولكنني لا اتفق معك ابداً »

ج ـ اتفاق تضميني مع خلاف تعييني :

الطفل : احب هذه الفطيرة يا ماما .

الام : انا ايضاً ولكن هذه تفاحة .

ان رائز التداعيات المثارة ليونغ لا يُقدِّم كرائز تضمين . ويكمن هذا الرائز في استعمال الوسيلة القديمة لتداعيات الكلمات (سألفظ بعض الكلمات ، وستجيب بالكلمة الاولى التي ترد في مجال ذهنك) بهدف اكتشاف « العقد النفسية » للمفحوص ، وذلك استناداً الى الصعوبات التي تولدّها بعض الكلمات المثيرة (ازدياد زمن الرجع بين المثير والاستجابة ، مثلاً . . .) ومضمون التداعيات نفسه . ولكن ، اذا سجّلنا في الوقت نفسه استجابات الفرد الكهربائية الجلدية ، يمكن بهذه الطريقة تحديد « الشحنة العاطفية » المرتبطة بالمثير . ففي عام1962 مثلاً ، أُجرِيَت تجربة على جماعة ضمّت خمسين طالباً ، وتبيّن في النهاية أن الكلمات التي تثير الاستجابات الكهربائية الأكثر حدّة هي الكلمات التالية : زواج ، قبلة ، اسم المفحوص ، رقص ، عطلة ، سياسة ، ام ، طفل ، طفولة ، سينما ، احصاء ، امتحان .

يمكن ، طبعاً ، مناقشة دلالة المثلين الذين اخترناهما لتجسيد مقولة التضمين . الا ان اهمية هذين المثلين تكمن في توضيح المظاهر الشخصية غير التعيينية في فهم العلامات واستعمالها . كما يساهمان في الوقت نفسه في إغناء علم الدلالة . اذ يبدو لنا ان تقريب مقولة مجال

الدلالة من مقولة حقل الدلالة هو تقريب كشفي .

ولكن لا بد من الملاحظة ان « التضمين » ـ كما نحدّده انطلاقاً من وجهة النظر هذه ـ يشمل ظواهر جماعية كما يضم ايضاً سمات فردية محضة .

واذا عدنا الى التمييز بين الدلالة والمعنى كما قدّمناه آنفاً ، نلاحظ بسهولة أن التغيين يرتبط بالدلالة في حين يتعلق التضمين بالمعنى . فالتضمين هو من الوسائل الاساسية للتأويل .

الا ان هناك تحديداً مختلفاً ـ بعض الشيء ـ للتضمين . وهو تحديد لا يلغي في نهاية المطاف التحديد السابق ، بل يكمّله . ويعرض ر . بارت هذا التحديد استناداً الى هذه العبارات : المنظومة التضمينية هي منظومة يتشكّل مخطّط تعبيرها من منظومة دلالة . وهذا ما يمكن رسمه إمّا باستعمال عبارات هيلمسيڤ Hjelmsev (ت = مخطّط التعبير ؛ ع = علاقة مع ت ؛ مخطّط المضمون = ت . ع . م = دلالة .

منظومة تضمينية : ت ع م
منظومة اولى تعم

اما اذا استعملنا عبارات دي سوسور ، (د = دال ؛ م = مدلول) فسنحصل على النموذج التالي :

المنظومة التضمينية	د		م
المنظومة الاولى	د	م	

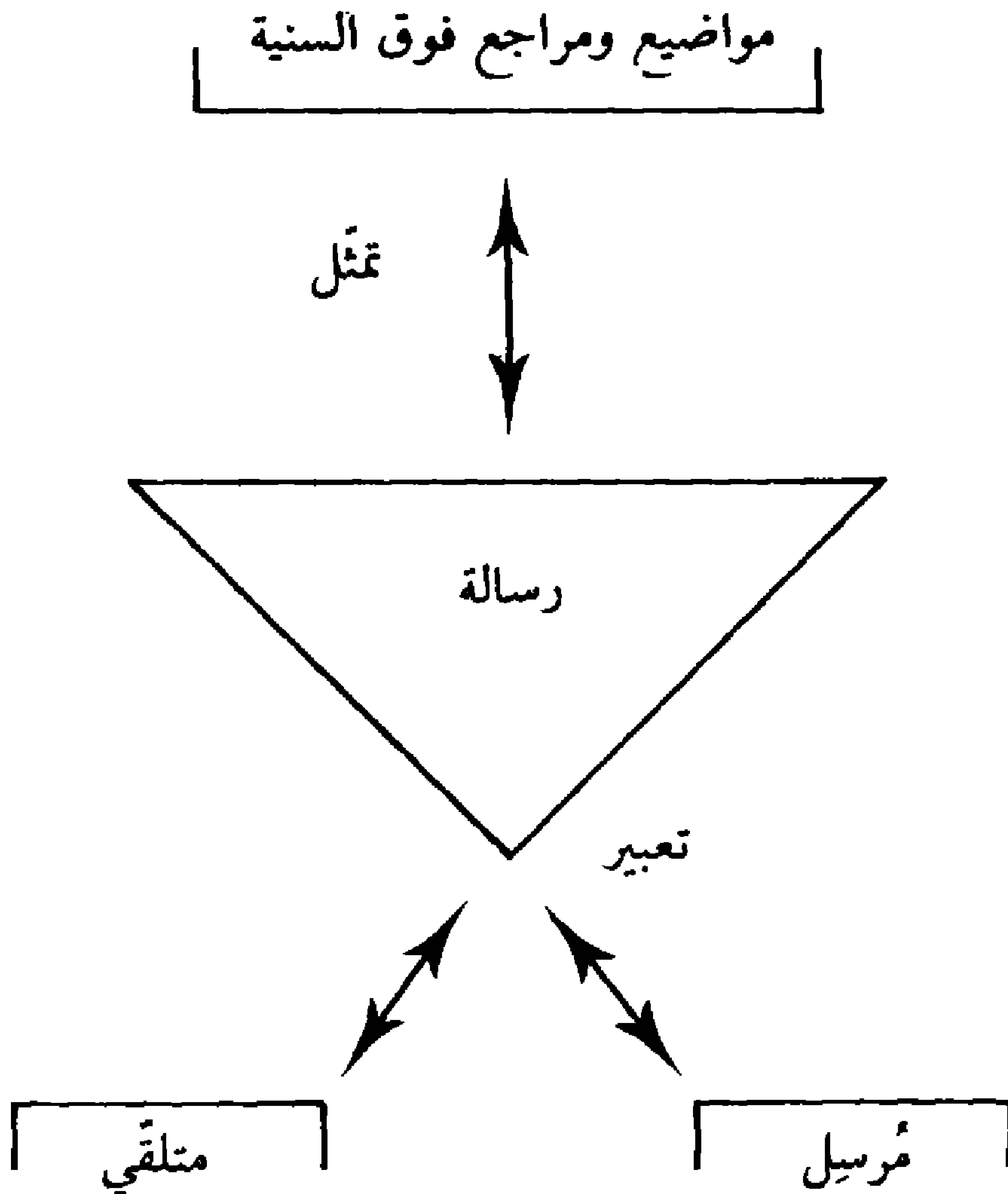
وهذه الطريقة في صياغة علاقة المنظومتين قريبة ـ على ما يبدو ـ من تصوّر ريكور للرمز كما عرضناه آنفاً . وهنا أيضاً تسمح طريقة الصياغة هذه بتحديد الوظيفة التأويلية كاكتشاف للوظيفة التضمينية الكامنة في منظومة الدلالة الظاهرة .

ويمكن مقارنة النشاط التأويلي هذا كما نتصوّره بنشاط التفسير او فك الرموز . وغالباً ما يبدو النشاط التأويلي على هذا النحو . وهكذا مارسه فرويد في بداية صياغته النظرية : اذ كان « تحليل الاحلام » مشابهاً لتمرين فك رموز مقالة ظاهرة بغية اكتشاف مقالة كامنة لا واعية . وهكذا برزت العبارة الشائعة للغاية والقائلة ان الحلم هو لغة اللاوعي وانه منبني هو نفسه كلغة .

والواقع ان التوقّف عند هذا الحدّ يؤدي مباشرة الى تمرين شكلي يكون مشابهاً لعمل الالسني اكثر مما يكون مشابهاً لعمل النفساني . وهنا يتم تناول الحلم (او اية مادة تعبيرية اخرى) كلسان ، ولا يتم تناوله ككلام .

للتوصّل الى الكلام ، لا بد من اللجوء الى مقولتين اساسيتين ومرتبطتين : مقولة **الوظيفة** ومقولة **التوازن الاقتصادي** . فاذا اردنا معالجة « نص » ككلام ، علينا ان ننظر الى هذا النص في وضعية اتصال ؛ اي ، بعبارة اخرى ، يجب موضعة هذا النص بالنسبة للمتكلمين . وهذا فقط ما يسمح بالوصول الى المعنى .

وقد رُسِمت **وظائف الرسالة** في علاقاتها مع اطارها الموضعي بطريقة بسيطة من قبل النفساني والفيلسوف النمساوي كارل بوهلر Karl Bühler عام 1934 .



وتكون الرسالة المعبّر عنها تمثّلاً بالنسبة للمراجع الفوق ـ السنية ؛ وتعبيراً بالنسبة للمُرسِل ، ومناداة بالنسبة للمتلقّي . وقد استُبدِلت احياناً هذه العبارات الثلاث بالعبارات التالية : رمز = تمثّل ؛ عَرَضْ = تعبير ؛ اشارة = مناداة . (ولكن هذه المصطلحات تحمل تضمينات متنوعّة ، ولا يمكن بالتالي الاحتفاظ بها) .

ومن نافلة القول ان اهمية كل من هذه الوظائف الثلاث قد تتغيرّ كثيراً تبعاً لطبيعة البيان . ورأينا آنفاً ان الاتصال الحيواني يكون اتصالاً

تعبيرياً بشكل اساسي ، ومعبّراً بالتفاصيل المورفولوجية وصميات النشاط الخصوصي عن حالة الدافع لدى المُرسِل . وعليه ، يكون الاتصال الحيواني بالنسبة لبوهلر اتصالاً عرضياً . كما رأينا ايضاً ان اللغة البشرية تهدف غالباً وباشكال عديدة ـ ومضلِّلة احياناً ـ الى هذه الغاية ، والى هذه الغاية فقط : محادثات أرصادية ، ومحادثات هكعية . . الخ ، تفتقد عملياً الى القيمة الاعلامية او التمثلية ، ولكنها تمتلك وظيفة المناداة : « انا هنا » ، ووظيفة التعبير : « انا بحاجة الى ان اتكلّم » . ومن البديهي القول ان الوظيفة الثالثة (اي الوظيفة الرمزية حسب بوهلر ، والوظيفة السيميائية تبعاً لبياجيه Piaget) هي التي ستميِّز اللغة البشرية . وكما يقول الالسني بنفينست Benveniste : « ان بروز الانسان في السلّم الحيواني ناتج قبل كل شيء عن قدرته على التمثّل الرمزي ، وهو مصدر الفكر ، واللغة ، والمجتمع » . فبفضل هذه الوظيفة تكوّن العلم والثقافة واستطاع تطوّر الجنس البشري ان يتحرّر من الوتيرة البطيئة المميِّزة للاكتسابات التي يحققّها تطوّر الاجناس وان يتجاوزها .

وعلى النفساني ان يحاول تقدير كل من هذه الوظائف في كل بيان . وبغية تسهيل هذا التحليل ، قد يكون من الضروري ان نُسهب في موضوع مختلف الوظائف الممكنة ، وذلك تبعاً للاقتراح الذي قدّمه ر . جاكوبسون R. Jakobson :

وهكذا يمكن للاتصال ان يكون :

- مركَّزاً على المرجع : وظيفة تمثّلية .
- مركزاً على المُرسِل : وظيفة تعبيرية .

- مركزاً على المتلقّي : وظيفة تأثير على الآخر (المناداة عند بوهلر)
- مركزاً على القناة : وظيفة صوتية (مثلاً : • « هل تسمعني ؟ »)
- مركزاً على نظام الاشارات : وظيفة ـ ما ـ وراء ـ لغوية (مثلاً : « هل تفهمني ؟ »)
- مركزاً على الرسالة : وظيفة شعرية . هنا تكون بنية الرسالة نفسها موضوع الاتصال .

ونرى ان جاكوبسون يستعمل ستة عناصر ملازمة لكل اتصال بشري ، وهي : مُرسِل ـ متلقّي ـ قناة ـ نظام اشارات ـ رسالة ـ مرجع . وقد اشرنا آنفاً الى كيفية تموضع هذه العناصر في نموذج شانون .

فالتحليل الوظيفي هو الذي يسمح بالاجابة على الاسئلة التالية :

- ما هي القيمة المرجعية للرسالة ؟ ونكون هنا غالباً على مستوى التعيين السطحي .
- ما هي القيمة التعبيرية لهذه الرسالة ؟ وهنا يظهر التضمين .
- كيف تتجّه المناداة ؟ ولِمَن تتوجّه المقالة ؟

واخيراً : عمَّ يتكلّم ؟
مع من يتكلّم ؟
لماذا يتكلّم ؟

هكذا ، وهكذا فقط ، يمكن بلوغ المعنى . اي بوضع الرسالة مجدّداً في الوضعية العيانية حيث وُلِدَت وحيث تم تلقّيها .

المظهر الما ـ وراء ـ لغوي .

في السيمياء التضمينية (تبعاً لبارت) تتشكّل دلاّت المنظومة الثانية

من علامات المنظومة الاولى . في ما ـ وراء ـ اللغة ، نكون تجاه الظاهرة المعاكسة ، اذ تتشكّل مدلولات المنظومة الثانية من علامات المنظومة الاولى .

ولنتناول الآن علم النفس . فمن البديهي ان يكون هذا العلم هو ايضاً ما ـ وراء ـ لغة ، انه ما ـ وراء ـ لغة لا يأخذ اللسان (او المنظومة) موضوع دراسة له ، بل الكلام (او الرسالة ، او حتى الاتصال) .

فلنأخذ على سبيل المثل حالة الفحص النفساني : ستتكوّن ما ـ وراء ـ لغة النفساني هنا من صياغاته النظرية ، ومن مقالته الخاصة الموّجهة اما لنفسه ، اما لمصب آخر سيرُسل اليه تقرير الفحص . ان ابتكار ما ـ وراء ـ لغة متماسكة ووظيفية هي اذاً مهمة اساسية في علم النفس . وسيطرح هذا الابتكار مسائل عديدة . الا ان الفقرات السابقة تسمح لنا بمعالجة هذه المسائل على نحو اسهل .

ثمة مسألة اولى تطرحها شخصية النفساني ، او « كفايته » . فاستعمال ما ـ وراء ـ لغة متماسكة وفعّالة يفترض اولاً تلقّي الرسالة وفك رموزها . الا ان هذا التلقّي يطرح صعوبات دلالية مشابهة لتلك الخاصة بالارسال . كذلك ، وعلى المستوى نفسه ، اذا كان التعيين واضحاً ، فغالباً ما سيكون التضمين غامضاً ، وعرضياً ، وحتى لا واعياً على مستوى التلقّي . اما التعيين ، فسيكون سهلاً في غالبية الاحوال . الا انه سيصطدم بصعوبات تأويلية . فاذا كان النفساني يشكو ، على سبيل المثل ، من مازم لا واعية مشابهة لمآزم المريض ، ستتدخّل ظواهر التواء المعنى ، مما سيمنع فك الرموز . واذا كانت مآزم النفساني مختلفة عن مآزم المريض ، لن يسهّل هذا الامر عملية فك الرموز . ذلك ان

النفساني سيخضع في هذه الحالة الى تعوّجات تبعده ايضاً ـ وربما اكثر ـ عن المعنى الأولي .

وهكذا سترتكز ما ـ وراء ـ لغة النفساني في آن معاً الى نشاط تعييني : تلقّي الارسالات « الظاهرة » للفرد وفهمها ، وقد يُضاف اليه تفسير يستند الى « معرفة نفسانية » (المعنى الذي يُنسَب الى بعض المجموعات السيميائية) ؛ والى نشاط تضميني يتسّم بقدر اقل ـ بكثير ـ من العقلانية . وهو نشاط اعتُبر غالباً غير مرغوب فيه . لكن هذا النشاط ، في حال تقبّله ، قد يكون عنصراً اساسياً من التفسير ، وبالتالي من الما ـ وراء ـ لغة النهائية . فهناك واقع ، وهو ان النفساني في وضعية اتصال يتلقّى رسائل موجّهة له . بعبارة اخرى ، لا تكون وظيفة هذه الرسائل تمثلية او تعبيرية فقط ، بل ايضاً ـ ودائماً ـ تأثيرية (او مناداة) . فبوعي النفساني لأثر الرسالة عليه ، يمكنه ان يُدرك ، من وراء الدلالة ، معنى الارسال .

ولا يكون هذا الامر سهلاً على الصعيد التطبيقي . ولا بد من الاعتراف ان كل واحد منا يميل الى التظاهر بالتعيين الصرف (اي بالبقاء على مستوى السيمياء او الدلالة الخاصة باللسان دون الاهتمام بالكلام) . وخاصة ان المفحوص من جانبه ، يميل الى جذب النفساني نحو سفح الدلالة ، ولن يجذبه نحو المعنى . ولذلك ، غالباً ما سيعطي المفحوص نفسه ما ـ وراء ـ لغة . وهكذا يحدث غالباً ان يروي المرضى قصتهم او طرائف شخصية حيث تبرز مآزمهم . وسيكون من المغري تأويل النص كنص تمثّلي . لكن على النفساني ان يعرف انه لا يدرك في هذه الحالة الوظيفة التأثيرية للنص : ذلك ان النص يوجّه اليه هنا والآن . وتأويله كاتصال حدث في مكان آخر لا يستوفي معناه الحالي .

وكذلك يكون الحال في « جماعات الاشراف » الشائعة في ايامنا والمخصّصة لدراسةالحالات » وحيث يشارك العاملون في المجال الاجتماعي . مثلاً ، يروي مشارك للجماعة ما قاله مستشار كان يروي هو نفسه ما جرى بينه وبين مديره . وفي كل هذا نسيج معقّد من الدلالات ، وتكون النقطة المرجعية في نهاية المطاف هي التالية : من يتكلّم ؟ مع من يتكلّم ؟ وعن ماذا يتكلّم ؟

وهكذا ستتنوّع الصعوبات الما ـ وراء ـ لغوية الخاصة بالنفساني تبعاً لعوامل مختلفة :

ـ شخصية المُرسِل التي ستتّسم بقدر من التعقيد .
ـ شخصية النفساني وقدرته على الاتصال مع الآخر ومع المفحوص العياني الموجود في الوضعية .

ـ طبيعة الرسائل التي يتلقّاها . فتطبيق رائز عقلي مثلاً من شأنه ان يُدخِل نشاطاً تعيينياً وصورياً لدى النفساني . اما استعمال رائز اسقاطي ، فسيُدخِل بدرجة اكبر تضمينات النفساني التي ستكتسب اهمية قصوى في المقابلة الحرّة .

ـ واخيراً نأتي الى مصب ما ـ وراء ـ اللغة . ذلك انه بعد الاتصال بين المفحوص والنفساني ، يقام ما ـ وراء ـ الاتصال بين النفساني والمصب ، حيث تُطرَح مجدّداً كل مسائل الاتصال . وعلينا ان ندرك جيداً انه في ما ـ وراء ـ الاتصال ، لا يتعلق الامر بارسالات المفحوص ، بل بآثار هذه الارسالات على النفساني .

علم النفس اللغوي وعلم النفس

بيّنت الفقرات السابقة العلاقات القائمة بين علم النفس المعاصر والالسنية ـ او على الاقل علاقات علم النفس بنماذج الالسنية ـ . وقد ذكرنا آنفاً ان الالسنيين يستعملون غالباً مفترضات نفسانية . ولكن يجب الآن العودة الى الموضوع الاكثر دقة : « علاقات اللغة والفكر » . وهو موضوع دراسة لميدان يتوسّع : علم النفس اللغوي . فالالسنيون المعاصرون يجمعون تقريباً على الكف عن القول ان اللغة هي تعبير عن الفكر . بل يعتبرون ان اللغة والفكر لا ينفصلان . حتى انهم يقولون ان اللغة مكوّنة للفكر . « من وجة نظر نفسانية ، وبغض النظر عن تعبير الفكر بالكلمات ، لا يكون فكرنا سوى كتلة عديمة الشكل وغير واضحة . فليس هناك افكار مسبقة ، وما من شيء واضح قبل ظهور اللغة » . هكذا يقول ف . دي سوسور .

« ويعتبر الالسني ، من جهته ، انه لا يمكن ان يوجد فكر دون لغة . وان معرفة العالم تتحدّد بالتالي بالتعبير الذي تتلقّاه [. . .] ان « شكل » الفكر يتمظهر في بنية اللسان » (بنفنيست). الا ان لائحة الاستشهادات قد تطول لتضم كتّاباً من مختلف الميول والاختصاصات . (كاسيرير Cassirer ، وارتبورغ Wartburg ، وورف Whorf كورزيبسكي Korzybski ، كارناب Carnap ، الخ) . وهم كتّاب يُنعتون احياناً بالكانطية المحدثة .

ونضيف ان وجهة النظر السلوكية تنمو في الاتجاه نفسه ايضاً . ذلك ان السلوكية تختزل « الفكر » الى الظواهر الفيزيولوجية التي تتوسّط بين الاثارات والاستجابات ، وحيث يمكن مقارنة الوعي ، اي الفكر القابل

للتعبير اللفظي ، بلغة داخلية . فواطسون كان يعتبر الفكر بمثابة نشاط للاواليات الحنجرية ، ومقالة « تحت ـ صوتية » او « ضمنية » .

ومنذ ذلك الحين ، صاغ سكينر Skinner نظرية للغة استناداً الى التعلّم الاجرائي ، في حين اقترح باحثون مثل اوسغود Osgood صميات « وسيطة » لتفسير سياقات الدلالة انطلاقاً من النموذج مثير ـ استجابة . ويمكننا القول ، مع الاقرار بالفروق المختلفة ، ان هؤلاء الكتّاب مقتنعون ان العلاقات بين الكلمات ودلالاتها هي علاقات احتمالية ، تتحدّد بتواتر الارتباطات وبتعزيزها ، تماماً كما هو الحال بالنسبة للتشريطات الاجرائية التي تُنفّذ على الحيوانات في المختبر .

وتبنّى اتباع باڤلوڤ ، من جهتهم ، موقفاً مشابهاً ، وإن برزت بعض الفروق . فوجود مسائل خاصة باللغة قد دفعهم الى اعتبار اللغة بمثابة « منظومة ثانية لتأشير الواقع » (وتتضمّن المنظومة الاولى جميع الاشارات غير الالسنية ، اكانت هذه الاشارات تشريطية او غير تشريطية) . وتتميّز هذه المنظومة الثانية عن المنظومة الاولى بنمط جديد من التعميم ، وهو التعميم الدلالي الذي يضفي على العلامات الالسنية صفات جديدة ، غير موجودة في المنظومات التشريطية لدى الحيوانات الاكثر تطوّراً .

ولكن يبرز حينئذ سؤال آخر : اذا كان الفكر واللغة مترابطين ، ومماثلين حتى ، الا يكون علم النفس الا السنية ؟ والا تكون الألسنية سوى علم نفس ؟

لنرجع ، قبل ان نعطي اجابة على هذا السؤال ، الى كتاب جديد اصدره الالسني نوام تشومسكي Noam Chomsky (1968) «

«Language and Mind» (« اللغة والفكر ») هذا العمل المثير للاهتمام مقسّم الى ثلاثة اجزاء : الماضي ، والحاضر ، والمستقبل . في « الماضي » يوجِّه تشومسكي نقداً للاتجاهات الالسنية المعاصرة . ويعتبر ان هناك ، على وجه العموم ، ثلاثة تيّارات في البحث .

التّيار الاول الذي يتخلّص منه تشومسكي بسرعة وبسخرية هو السلوكية (او « علوم السلوك ») التي ازدهرت بعد الحرب الاخيرة . فقد بيّنّ التحليل انه بقدر ما كانت منظومة المفاهيم والمبادىء الخاصة بالسلوكية دقيقة ، كان من الممكن التبيان ان هذه المنظومة نفسها لم تكن ملائمة ، وان هذا النمط من الالتماس يكون مضلّلاً في ميادين اساسية وهامة .

التّيار الثاني هو التّيار البنيوي الذي ازدهر منذ الخمسينات . فبالنسبة لهذه المدرسة ، لا يكون بناء الجمل شأناً يرتبط باللسان ، بل بالكلام . وقد تم التركيز بشكل خاص على قواعد تشكيل الكلمات والفونيمات اكثر من الاهتمام بالتركيب . ولكن المناهج البنيوية ، بالنسبة لتشومسكي ، لا تتجاوز دراسة ظواهر البنية السطحية ، ولا تكون بالتالي قادرة على كشف الاواليات الكامنة وراء المظهر الابداعي للغة وتعبير المضمون الدلالي .

اما التّيار الثالث ، فهو النمو الفلسفي الذي ازدهر منذ القرن السابع عشر حتى ظهور المدرسة الرومنطيقية . وهو التّيار المتفّرع من الديكارتية التي يستند اليها تشومسكي .

وقد ابرز هذا التّيار المظهر الابداعي لاستعمال اللغة ، كما قام بثلاث ملاحظات هامة :

يكون استعمال اللغة مبتدعاً ذلك انه يمكن قول ـ وفهم ـ اشياء لم تُقَل ولم تُسمَع من قبل .

يكون استعمال اللغة مستقلاً عن ضبط المثيرات الخارجية والداخلية .

يكون استعمال اللغة متماسكاً ومناسباً للوضعية .

انها ملاحظات لا تخفى على كل عقل سليم . الا ان السلوكيين قد اهملوها . من جهة اخرى ، نجد في « كتاب قواعد اللغة » الخاص ببور ـ رويال Port-Royal تمييزاً اساسياً بين البنية السطحية والبنية العميقة . وتتناظر البنية السطحية مع الاصوات ، ومع المظهر المجسّد للغة . ويرافق هذه البنية تحليل ذهني يمكن تسميته بالبنية العميقة : وهي بنية صورية لا ترتبط مباشرة بالاصوات ، بل بالدلالة .

وترتبط البنية العميقة بالبنية السطحية ببعض العمليات الذهنية سنسمّيها تبعاً للمصطلحات الحديثة بـ « التحويلات النحوية » .

ويرى تشومسكي ان نظرية كهذه تنتمي الى علم النفس . وهي تؤدي الى استكشاف خصائص الذكاء البشري .

وفي « الحاضر » ، يوضّح تشومسكي وجهة نظره .

يجب التمييز بين الاداء الالسني والكفاية الالسنية . وتتجسّد الكفاية بالبيانات التي لا يمكن فهم جوهرها السطحي الا بالارجاع الى بنية تتسّم بقدر اكبر من المنطق والدقة ؛ وهي البنية العميقة التي تتضمّن اجتيافـ(1) كل متكلّم لكفاية خاصة ، والشخص الذي اكتسب معرفة

(1) اللسان ، هذه الاداة الاجتماعية ، يكون في البدء مستقلاً عن الفرد . وامتلاك الفرد التدريجي للسان يشكلّ الاجتياف .

لسان معينّ قد استوعب منظومة القواعد التي تربط بطريقة معيّنة الصوت بالمعنى . والالسني الذي يصيغ قواعد لسان معينّ يقترح في الواقع فرضية تتناول هذه المنظومة التي تم استيعابها . ولكن من البديهي ان استيعاب القواعد يتم ـ بالنسبة لكل فرد ـ انطلاقاً من تجربة خاصة ومحدودة ، وعليه ، يوجد نحو اكثر كونية يسمح باكتساب النحو الخاص بكل لسان وباستعماله . ودراسة النمو التكويني ـ تبعاً لهذا التحديد ـ هي دراسة طبيعة القدرات الفكرية البشرية . وهكذا يكون الالسني ، على مستويات عديدة ، مدفوعاً الى بناء نظريات تفسيرية . وهناك ، على كل مستوى ، تفسير نظري واضح لعلمه النظري والوصفي . فعلى مستوى النحو التقليدي ، يحاول الالسني ان يميّز معرفة لسان محدّد ، ومنظومة معرفية معيّنة طوّرها ـ بشكل لا واعٍ ـ المتكلّم ـ المخاطب السوي. وعلى مستوى النحو الكوني ، يحاول الالسني اقامة بعض الخصائص العامة للذكاء البشري . ويقول تشومسكي : « وتكون الالسنية ، تبعاً لهذا التحديد ، وبكل بساطة ، ميدان علم النفس الذي يهتم بهذه المظاهر من الفكر » .

وفي « المستقبل » ، يهتم الكاتب « بالمسائل التي تبرز حين يحاول المرء توسيع دراسة البنية الالسنية كفصل من فصول علم النفس البشري » . وتكمن الاهمية الكبرى لدراسة اللغة في انه من الممكن اعطاء تعبير واضح ودقيق نسبياً عن بعض الاسئلة المركزية لعلم النفس وفي توفير عدد من الوقائع التي ترتبط بهذه الاسئلة ؛ ومنها السؤال التالي : ما هي البنية الأوّلية التي يجب ان يمتلكها الفكر كي يكون قادراً على بناء نحو توليدي انطلاقاً من معطيات الحواس ؟ ويركز تشومسكي

على صلـة هذا السؤال بالموضـوع باستعادتـه لابحـاث الاتولـوجيين المعاصرين .

وفي نهاية المطاف ، يقترح الكاتب ثلاث مهام على النفساني :

1) اكتشاف الصميمة الفطرية التي تميّز فئة الالسن الكامنة . « هذه المهمـة هي من اختصـاص علـم النفس البشري المعـروف باسـم الالسنية » .

2) الدراسة التفصيلية للسمة الفعلية الخاصة بالاثارة وبالتفاعل بين الكائـن الحـي والمحيط ، هذه السمـة التـي تُشغِـل الاواليات المعـرفية الفطرية .

3) دراسة مسألة العلاقة التي لا بد ان توجد بين نحوٍ كامن ومجموعة من الوقائـع ، كي يتـوكدّ هذا النحـو كنظـرية فعلية للسـان الخاضـع للدراسة . ونكون هنا ازاء موضوع يتجاوز مسألة التعلّم . نكون تجاه مسألة من مسائل التكوين الفردي .

لا يسعنا في هذا المجال ان ندخل في تفاصيل حجـج تشومسـكي والامثلة العيانية التـي يعطيهـا . لكن الاستشهـادات السابقـة تكفـي لاعطائنا فكرة عن تفاوءله حول علاقات الالسنية بعلم النفس . الا ان هذا الرأي يمثّل في الوقت الحاضر اعتقادات الكثير من الالسنيين . ونجد عدداً من صحيفـة « علـم النفس الفـرنسي »(psychologie(1968» «française مخصصّاً « للنحـو التـوليدي وعلـم النفس اللغـوي » «Grammaire générative et psycholinguistique» . كذلك نجـد عدداً من مجلة « لغات »(1969) «Langages» ، وقد خُصِّص لـ « علم

النفس اللغـوي ،والنحـو التـوليدي » («Psycholinguistique et Grammaire générative» .

ويبدو علم النفس اللغوي حينئذ كـ « مجال اختصاص يمزج بـين علم النفس والالسنية لدراسة استعمال اللغـة ، ولدراسـة ـ على وجـه الخصوص ـ السياقات النفسانية الكامنـة وراء انتـاج المواد الالسـنية ، وفهمها ، وتذكرّها ، والتعرّف عليها » (جـ . مهلر J. Mehler) .

ومناقشة مواقف تشومسكي تفترض القيام ببحث عام . ولكن من الممكن في رأيي ان نأخذ على هذه المواقف طموحاتها الواسعة والمحصورة في آن معاً . هذه الطموحات واسعة للغاية لأن الانتقادات التي يوجّهها تشومسكي لباقي الالسنية تكون مبّررة غالباً ولكنهـا متطرّفـة احيانـاً ، ويمكن توجيهها ضد منظومته الخاصة. ثم انها انتقادات محصورة للسبب التـالي : اذا كانـت مساهمـة تشومسـكي في مجـال الالسـنية مساهمـة جوهرية ، فأن مساهمته في علـم النفس اللغـوي اقـل اهمية بسبـب التحديد الذي يعطيه لهذا الميدان .

ذلك انه يمكن ابداء الملاحظات التالية :

1) ان تشومسكي ، ولو لم يعترف بالتقسيم الثنائي الذي وضعـه سوسور بين اللغة والكلام ، يقترح تقسيماً آخـراً : الكفـاية ـ الأداء . وهو تقسيم غير كامل ايضاً . وهو ، بالاضافة الى ذلك ـ وعلى ما يبدو ـ يهمل وضعية الاتصال العيانية .

فاذا سمّينا :

ل . : المعطيات الالسنية الاساسية (التي يوفرّها المحيط)

ـ أم : مخطط الاكتساب ، وهو منظومة فطرية فرضية ، يرتبط بها « النحو الكوني » .
ـ ن : « النحو التوليدي » الخاص الذي يسمح بتكلّم اللسان ل وبفهمه ، اي بتحقيق الاداء د .

يمكن رسم تصوّره لاكتساب اللغة على النحو التالي :

ل ⟵ أم ⟵ ن ⟵ د

حينئذ ، يكمن عمل الالسني ـ كما يحدّده ج ـ . دوبوا J. Dubois ـ في بناء النحو . ونضيف ، بعد كل ما سبق ، ان عمل عالم النفس اللغوي يكمن في تحديد العلاقات بين « أم » و « ن » .

الا ان بعض اللبَس قد يظهر هنا . فـ « ل » ، وهو مُعطى السني اساسي ، يتشكّل من اداءات المحيط ، اي انه يؤكد على الجدلية التي اقامها دي سوسور بين اللسان والكلام . فاذا كان الطفل قادراً على استيعاب هذا اللسان لانتاج الرسائل بدوره ، هذا يعني ان تجهيزه الوراثي يجعله قادراً على ذلك (الكلب في البيت لن يتوصّل الى ذلك . . .) الا ان هذه « الكفاية » الوراثية الخاضعة لانبناءات تكوينية فردية محدّدة هي ـ على ما يبدو ـ موضوع دراسة علماء النفس التكوينيين منذ سنوات . ونذكر على وجه الخصوص بياجيه وتلاميذه . وهذه الدراسات للنمو المعرفي قد دفعت ببياجيه(1962) الى التركيز على النقاط التالية :

أ ـ تكون جذور العمليّات سابقة للغة .

ب ـ يرتبط بناء الفكر باكتساب الوظيفة الرمزية عموماً ، ولا يرتبط باكتساب اللغة كلغة .

وتبينّ ابحاث بياجيه وب . انلـدر B. Inhelder ومساعـديها ان « العمليات الفكرية » تمد جذورها في الصميات الحسّية ـ الحركية وفي تآزرات النشاط .

بكل تأكيد هذه الابحاث لا تتعـارض مع ابحـاث تشومسـكي ، ولكنّها تبينّ ان تشومسكي ، في النهاية ، لا يهتـم بالمتكلّمـين ، وهـم مراكز « ام » (مخطط الاكتساب) ، انما يهتم بـ « ل » فقط ، كما يفعل كل السني . . . وكذلك هو الحال بالنسبة لـ « ن » . فالنحو التوليدي هو في الواقع منظومة منطقية تسمح بتحليل الادآءات تبعاً للسان المجرّد . وكل هذا من اختصاص الالسنيين .

2) ولكن على علم النفس اللغوي ان يهتم ايضاً بالكلام في سياق الارسال والتلقّي . بعبارة اخرى لا يمكن لعلم النفس اللغوي ان يغضّ النظر عن الوضعية والمتكلمين . فتشومسكي الذي يهتم باللسان ـ دون الاهتمام بالكلا ـ لا يميَّز بين وظيفة الارسال ووظيفة التلقّي . وهذا ما يسمح له بالقول : « ان كل فرد يتكلّم لساناً يكون قادراً على فهم عدد لا متناهـي من الجمـل المستحدثـة وعلى ارسالهـا » . . . وهـذا القول خاطىء تمامـاً . فخـلال النمـو الفـردي ، تكون الوظيفتـان متفاوتتين زمنياً : ذلك ان الفهـم يسبـق الارسـال . ويوجـد فرق حتـى لدى الراشد : فاذا كان صحيحاً انه يمكننا فهم عدد لا متناهي من الجمـل المستحدثة ، من البديهي اننا غير قادرين على ارسال عددٍ لا متناهي من هذه الجمل . فلكل واحد منـا اسلوبـه وقائمتـه . وتسمـح الدراسـة الاحصائية بتحديد هذا الاسلوب وهذه القائمة . على كل حال ، هذا عنصر من عناصر معرفة الآخر . وبفضـل هذا العنصر ، يكون علـم النفس ممكناً .

3) الا ان افكار تشومسكي تسمح بتحديد ادق للمقولات التالية :

* اللسان ، مع نحوه ، الذي يسمح بتوضيح البنى العميقة الكامنة وراء البنى السطحية للكلام ، والذي يُدرَس من قِبَل الالسنية .

* الكفاية المعرفية الوراثية او الظاهرة التي ستتوضح بدراسات الالسنية المقارنة ، وعلى وجه الخصوص ، بالظهور المحتمل لـ«نحو كوني». ولكن الكفاية المعرفية هذه تستفيد ايضاً من ابحاث علماء النفس التكوينيين ، ومن الابحاث ـ وليعذرنا تشومسكي ـ التي تتناول التعلّم . ذلك ان الاتهام الرئيسي الذي يمكن في النهاية ، توجيهه الى السلوكيين هو انهم لا يدرسون ، هم ايضاً ، سوى « الكفاية » .

* الكفاية المزاجية التي يهملها تشومسكي في الواقع لانها تخص المتكلّم العياني ؛ اي انها تتعلّق بتكوين الكلام ، ولا ترتبط بتكوين مقاطع اللسان . وستكون هذه الكفاية تابعة من جهة لمستوى تحقيق الكفاية المعرفية ، اي التجهيز الوراثي ـ وايضاً التجهيز الثقافي الاجتماعي ـ وللقيود المزاجية والعاطفية من جهة اخرى . وهذه عناصر يحاول القياس النفساني تقديرها منذ زمن بعيد .

* أداء المتكلّمين . اي الرسائل المرسلة من جهة ـ وقد عالجنا آنفاً المسائل السيميائية والتأويلية المرتبطة بها ـ وانخراطها في الاقتصاد العام للكائن الحي من جهة اخرى . فاذا كانت الكفاية جزءاً من النسق التنظيمي الاحيائي للجنس ـ وهذا امر نوافق عليه ـ يجب اذاً وضع النشاط الكلامي مجدداً في التوازن العام للفرد المتكلّم .

وعلى علم النفس اللغوي ان لا يهتم فقط بالكلمة ، وبتكوينها المنطقي ، بل ايضاً بالكلمة المتجسّدة ، اي بترابط النظام الاحيائي

والنظام الالسني ، هذا الترابط المحدِّد للوجود البشري .

جوار علمي

جرى التقليد على القول ان علم النفس يقع على حدود علم الإحياء من جهة وعلم الاجتماع من جهة اخرى . وبعد ان حاولنا ، في الصفحات السابقة ، تقديم علم النفس ، يجب الآن تحديد موقعه بالنسبة لجاريه . ذلك انه اذا قلنا ان الفلسفة ، ام علم النفس ، كانت غالباً اماً طاغية ، فان شقيقتيه ، من جهتهما ، تتنازعان غالباً عطفه وحتى هويته .

الا ان القارىء قد توصّل الى ادراك مسألة علم النفس الاتصالي المعاصر الذي اوضحناه في السطور الاخيرة للمقطع السابق . وهي مسألة ترابط النظام الاحيائي والنظام الالسني . فكيف يظهر ـ على المستوى الفردي ـ النظام الوراثي المنظمٌ للحياة ، والنظام الالسني ـ لدى الانسان ـ المنظمٌ للفكر .

علم النفس وعلم الإحياء .

العلاقات القائمة بين علم النفس وعلم الاحياء متعدّدة ومعقّدة . واذا كان القارىء قد تابع حديثنا حتى الآن ، فقد يرى ان التعبير « علم النفس وعلم الاحياء » هو تعبير غير مناسب . اذ يوحي هذا التعبير ان علم النفس يغطّي ميداناً متاخماً لميدان آخر هو علم الاحياء . ولكننا نصرّ على ان الميادين هي ميادين علم الاحياء وعلم الاجتماع ، وان علم النفس يدرس حدودها .

حينئذ ، تتعدّد وجهات النظر . ونذكر اولاً وجهة نظر علم الاحياء العام . « يمكن تحديد الوسط الانساني كـ « دائرة كلامية » تشكل جزءاً من الدائرة الاحيائية الموظّفة من قبل الحيوان الاجتماعي ـ الانسان » (هكذا يكتب الالسني أ . ريA.Rey) الا ان الدائرة الاحيائية هي ، تبعاً لعبارة لوفLWOFF الموفّقة، تحقيق للنظام الاحيائي . هذا النظام ، وهو موضوع دراسة علم الاحياء ، قد توضّح كثيراً خلال بضع سنوات بفضل الاكتشافات التي أنجزها علم الاحياء الجزيئي . وقد ادّت هذه الاكتشافات الى تعديل تحديد الحياة . ذلك ان الحياة تتّسم بالنظام الذي تكون بعض الجزئيات الكبيرة (الحوامض الحاوية على الريبوز النواتي والخالية من الاوكسجين) قادرة على فرضه في المادة التي تستعملها . ففي حين تتسّم المادة غير الحّية بتفككٍ متزايد (ظاهرة « القصور الحراري ») ، تتميّز المادة الحيّة بتشكيل تجمعات تنظيم تستمّر بسياقات ضبط ذاتي ، وتوالد ذاتي . فكما يعرف الجميع في أيامنا هذه ، تتشكل البنية المبرمجة الأساسية من جزئية الحامض الحاوي على الريبوز النواتي والخالي من الاوكسيجين (ح . خ . نA.D.N) . وهي جزئية كبيرة وخطّية تتشكّل من وحدات « نواتية » تمتلك كل منها قاعدة مُنَتْرِجة (أي محتوية على الأزوت) . وهناك أربع قواعد منترجة يمكن أن تُقرَن فيما بينها . وجزئية الـ ح . خ . ن . تتشكل في الواقع من سلسلتين ترتبط نواها بالقواعد المنترجة . مما يجعل من كل سلسلة مكمّلة لسلسلة أخرى ، بفضل تناظر القواعد . كما تكون كل سلسلة مفصولة عن السلسلة الأخرى قادرة على اعادة بناء شريكتها الصحيحة بفضل التنظيم الخاص للقواعد . وتسمح هذه الوسيلة ـ حين تنقسم الخلية ثنائياً ـ بواسطة فصل السلاسل (التضعيف) وتوزيعها على كل

من الخلايا ـ البنات ، بالاحتفاظ ـ بالنسبة لكل خليّـة ـ بنسخة صحيحة عن الـ ح .خ.ن الأوّلي . ويكون هذا الأمر أساسياً ، ذلك أن مجموعة الـح.خ.ن هي التـي تحـكم تركيب الهيولينـاتProtéines الخاصـة بالخلية ، أي الخمائر التي تسمح بتلك التفاعلات الـكيميائية . وتبعـاً لسياق نسخ مشابه للتضعيف ، ستكون الجزئيات الكبيرة (الحـوامض الحـاوية على الريبـوز النواتـي) ذات البنية المنظّـمـة حسـب الـ ح.خ.ن. المُرسِل ، وستَسْمـح بفضـل منظومـة قراءة معقّـدة ، ببنـاء جزئية كبيرة تتألف من الحوامض الأمينية (هيولينات) . وسيتناظـر كل حامض أميني مع مجموعة من ثلاث قواعد من حامض الريبوز النواتي (ح.ر.ن.A.R.N.) . وهكذا سيسمح تتابع القواعد المشار اليهـا من قِبَـل الـ ح.خ.ن. ، وتبعـاً لنسخـة الـ ح.ر.ن. ، بتـرتيب توالي خصوصي من الحوامض الأمينية ، أي بصناعة هيولينات خصوصية .

ونرى هكذا ان بناء الخلية وتشغيلها يخضعان لنظام . وهـو نظـام نصّ على منظومة ضبط ذاتي تسمح بالبرمجة وبالتكيّف الوظيفي للمنظومة تبعاً لحاجات الخلية .

كل ما سبق ملخّص للغاية ، ولكنه يسمح بادراك التشابه الحـالي بين النماذج الاحيائية والنماذج النفسانية . ويكمن هذا التشابه في نظـام يعبرٍ عن نفسه برسائل عيانية متكيّـفة على الوضعية . وتكمن الوراثة في نقل بنية بفضل منظومة ترميز . ثم ان العنصر « الوراثي » الوحيد يتكوّن من النظام ، ولا يتكوّن من المواد الدائمة . ما نودّ قوله هو أن السمـة المشتركة بين رجل بلغ الأربعين من العمر والرجل نفسه قبـل عشرين عاماً لا تكمن في « مادته » (على خلاف كائن غير حي كالطاولة مثلاً) . ذلك أن الذرّات المؤسِّسة قد تجدّدت خلال هذه الفترة . الا أن نظامه أي

بنية جزئياته الكبيرة المؤلفة من الـح.خ.ن. ، قد بقي هو نفسه (الا اذا استثنينا الحوادث كما في حالة التغيار الاحيائي مثلاً) .

ويتم تحقيق النظام الوراثي على مستوى النمط الظاهر الذي سيتبع تعليمات النظام (الـح . خ . ن الخاص بالفيلة سيتكلّم لغة الفيلة) ، وايضاً الوسط الذي سيقّدم المواد والمعلومات التي بفضلها يتمكن النظام من التعبير عن نفسه . وعلى المستوى النفساني ، يتم التعبير عن النظام بتصرفات نمطية ظاهرة وخصوصية ستتموضع تبعاً لبرامج وراثية يرتبط تحقيقها الى حدٍ ما بالوسط . وعرضنا آنفاً كم حدّدت الاتولوجيا المعاصرة هذه الظواهر .

ومن البديهي القول أن برنامج الجنس البشري يتضمّن صياغة اللغة . ولذلك صاغ تشومسكي فرضيته حول الطبيعة الوراثية «للنحو الكوني » . والانسان ، في الوقت نفسه ، مهيأ بنظامه لان يكون كائناً حياً متكلّماً . هذا يعني ، بعبارة اخرى ، ان توازن الكائن البشري يحتاج ، كي يكون توازناً صحيحاً ، الى الكلام . وسوف لن يلعب الكلام دوراً في الاتصال الاجتماعي فقط ، بل ايضاً في الاقتصاد الاحيائي للكائن الحي .

وفي حال الاضطلاع السيء لهذه الوظيفة بكلام ضعيف ، سيؤدي ذلك الى تشويش الضبط العضوي وإضعافه . ونستطيع حينئذ ان نتصوّر طبيعة بعض الاضطرابات التي يُطلَق عليها اسم الاضطرابات « النفسدي » ، وامكانية التأثير « العلاجي النفسي » بالكلام عينه .

ونضيف ان علم الاحياء الجزيئي قد فتح في مجال علم الوراثة افاقاً جديدة ، ومنها مثل اوالية البلاهة « الفينيلبيروفية » idiotie

phénylpyruvique [1] . اذ تبينّ ان خطأً في الترميز يكون مسؤولاً عن هذا المرض الذي يمكن تجنبه باتّباع نظام تغذية مناسب . وبطبيعة الحال ، هناك ايضاً اشياء كثيرة نقولها حول الامراض التي لم يعد يُنظَر اليها كامراض جينية ، بل كامراض ناتجة عن خلل في الصبغيات :

الصبغية الفائضة لدى المنغوليين ، خلل الصبغيات الجنسية الخاص ببعض الامراض ، دور الصبغية « ي »«Y» (الصبغية الذكرية) الفائضة لدى بعض السيكوباتيين . . . ولم اذكر كل شيء .

ودراسة النمط الظاهر نفسه ستكون موضوع الفيزيولوجيا (بحصر المعنى) حيث تهم فصول عديدة النفساني ، وعلى وجه الخصوص فيزيولوجية السلوك التي يطلق عليها اسم علم النفس الفيزيولوجي . وهنا ايضاً ، كيف يمكن ان لا نذكر عناوين بعض الفصول ! علم الغدد السلوكي ، وفيزيولوجية الحواس ، وفيزيولوجية الاعصاب حيث سمحت الطرائق الكهربائية الفيزيولوجية المعاصرة باكتشاف اواليات النوم ، والحلم ، والتيقّظ ، والانفعال . كما سمحت ايضاً بموضعة دوائر الحياة الغرائزية ، والدوافع ، والعدوانية . . . الخ . . . وعلينا ان لا

(1) تتميّز البلاهة الفينيلبيروفية بتخلّف عقلي يتزايد تدريجياً ، ويظهر لدى الأطفال الشقر جداً ، والشاحبين ، وذوي العيون الزرق . وتنتج هذه البلاهة عن خلل في الجينة المسؤولة عن تشكيل الفينيلالانين ـ هيدروكسيلاز . ويؤدي غياب هذه الخميرة الى صدّ التحويل السوي للفينيلالانين الى تيروزين . ويزداد في المقابل تحويله الى حامض فينيلبيروفي ، مما يؤدي الى تسمّم الجهاز العصبي ، كما يَنتج تغيير التلوّن الجلدي عن نقص في القُتامين Mélanine ، وهو من مشتقّات التيروزين . وتكمن وقاية هذا المرض الجيني في فرض نظام تغذية يفتقد الى الفينيلالانين للاطفال المصابين به . ويمكن هكذا ، وعلى الرغم من النمط الوراثي غير السوي ، تجنّب حالة النمط الظاهر المرضي .

نسى فصل علم النفس العقاقيري ، وهو فصل معاصر لسببين : اكتشاف العقاقير النفسانية ذات التأثير العلاجي التي سمحت بتغيير موقف الاطباء العقليين عبر تغيير المرضى الذهانيين. ثم شيوع العقاقير المخلّة بالنشاط النفسي (والمعروفة لدى العامة باسم المخدّرات) ، والمولدّة للهلوسات على وجه الخصوص ، وحيث يطرح البعض منها مشاكل اجتماعية (او يكشف عنها) .

ويمكن ، اخيراً ، اعتبار علم نفس الاعصاب بمثابة فرع من علم النفس الفيزيولوجي . ولكنه الفرع الذي يمكن تطبيقه ـ على الاخص ـ في دراسة الفيزيولوجيا البشرية المحضة ، اي في فيزيولوجية اعصاب الكفاية « الاتصالية » .

وتُدرَس هكذا ثلاث منظومات كبرى على مستوى الدماغ الذي يمكن اعتباره بمثابة منظومة معقّدة للضبط الذاتي :

1) منظومة التوازن والتيقّظ حيث يتدخّل الجذع الدماغي ، والتشكيل الشبكي ، والاجزاء القديمة من نصف كرة الدماغ (الفلقة الحافية) .

2) منظومة تلقّي المعلومة ، وترميزها ، واستيعابها ، والاحتفاظ بها . وهي منظومة تتضمّن الأقسام الوسطى والخلفية لنصفي كرة الدماغ . وعلينا أن نذكر هنا أن الابحاث المتعدّدة التي قام بها العلماء المتخصصّون في فيزيولوجية اعصاب الادراك ، والعلماء الفيزيولوجيون المتخصّصون في الحُبسة قد كشفت لنا تفاصيل عدة حول تشغيل :

3) منظومة برمجة السلوك ، وضبطه ، وهي وظيفة تبدو مرتبطة

بالفلقات الما ـ قبل ـ جبهية .

ويستطيع القارىء ان يتفهم انه من المستحيل ، ازاء هذه المجموعة المدهشة من المعطيات ، ان نغرق في المزيد من التفاصيل .

ولكن ـ قد يقول القارىء ، اذا كنا نعرف هذا القدر من الاشياء ، فكيف نفسرٍ ان علم النفس ما زال يفتّش عن نفسه ؟ وكيف نفسرٍ ايضاً ان علماء النفس ما زالوا يتساءلون عن موضوع دراستهم وعن طبيعته العلمية ؟

نعتقد في الواقع انه يمكن الاجابة على هذه الاسئلة انطلاقاً من الآفاق التي وسّعناها في الفقرات السابقة . كنا قد رأينا ان السلوكيين البدائيين ،كواطسون، كانوا يعلنون ان دراسة « العلبة السوداء » ليست من شأنهم . الا ان علماء الاحياء (في المعنى الواسع للكلمة) في مرحلتنا هذه قد اغنوا معرفتنا للعلبة السوداء . ولكن هذا يصح بالنسبة « للكفاية » ولا يصح بالنسبة للاداء . ولنستعمل تشبيهاً عملياً ، وان اتّسم « بالميكانيكية » : اذا شبّهنا الكائن الحي بسّيارة ، تكون « العلبة السوداء » المحرّك الموجود تحت الغطاء المعدني . ويعرف المهندسون تماماً ما يجري في المحرّك . وبعض السائقين ايضاً . الا انه ليس من الضروري ان يكون المرء عالماً جداً في الميكانيك كي يقود سيّارة . ثم ان المعرفة المعمقة لمحرّك سيارة رينو4 لRenault 4 L طراز عام1969 لا تسمح لنا ان تفسرٍ لماذا توجّهت السيّارة رينو4 ل الخاصة بالسيد دوبون وحاملة الرقم258BN69 في4 آب1970 من ليون الى مدريد . . .

واذا عدنا الى علم النفس نقول ان النفساني يهتم « بالسلوك » العياني ، اي « الاداء » .

لكن ، اذا كان علم احياء الكفاية قد حقّق تقدّماً مدهشاً ، علينا ان نعترف ان علم احياء الاداء لا يزال في بداياته . وعلى الصعيد الحيواني ، باشر المتخصّصون في الاتولوجيا الفيزيولوجية بهذا العمل . إما على الصعيد البشري ، فمن المنتظر ان ينمو هذا العلم في السنوات المقبلة آخذاً شكل **فيزيولوجية الانسان المتكلّم** *التي ذكرناها آنفاً* . وبهذا ، سيشمل هذا العلم الالسنية وعلم النفس . ونعيد القارىء مرة اخرى الى الفقرات السابقة .

علم النفس وعلم الاجتماع

اذا سلّمنا بان علم النفس يهتم بترابط النظام البيولوجي والنظام الالسني ، وبالتعبير المتشابك لهذين النظامين على صعيد الفرد ، نستنتج ان الدراسة الاكثر خصوصية للنظام البيولوجي ستكون من اختصاص علماء الاحياء . اما دراسة النظام الالسني ، فستكون اساساً من اختصاص علم الاجتماع .

ذلك ان النظام الالسني هو نظام اجتماعي ـ ثقافي . ونفهم لماذا يتجه بعض علماء النفس ، وايضاً بعض علماء الاجتماع الى اضفاء قيمة استثنائية على هذا المظهر فقط ، وذلك ليس على حساب علم الإحياء فحسب ، بل ايضاً على حساب علم النفس . وهذا موقف مطمئن ، ذلك ان انكار النظام الوراثي او نفيه بالاحرى ، هو نفي للموت . وهو ايضاً التأكيد النفاجي على قوة الفكر الكلية .

الا ان هذه الراديكالية ليست ضرورية للاعتراف باهمية العلوم الاجتماعية . وبرهنة وجهة النظر هذه تفترض الدخول في التفاصيل . وهذا ما يستحيل علي نظراً الى ضيق المجال والنقص في الكفاية .

وعليه ، لن اضع الا بعض الاسئلة تكون الاجابات عليها اساسية ، ولكنها - في الوقت الحاضر - غير اكيدة .

1) كيف سيشرِّط المجتمع الفرد « النفساني » ، اي الفرد الحامل للمعاني والمولِّد لها ؟ يتم هذا التشريط ، في مرحلة اولى ، بالضغط الذي يُمارس خلال النمو النفسي للفرد . رأينا آنفاً أن اجتياف النظام الالسني يتم في سن مبكرٍ بالتوسّط العائلي ، ويكون مرتبطاً بالبناء التدريجي للعلاقة الغيرية ، اي بالظهور المتتابع للمثلّث الاول : انا - أُم - الآخرون ، ثم للمثلّث الثاني والاساسي : انا - أُم - أب . وهذا الفصل التدريجي للمواضيع (الغير) يسمح بهلوستها في حال غيابها ، وبتمثلها الرمزي المرتبط بظهور الوظيفة الرمزية . وكل لعبة التماهيات ، والاحباطات ، والصراعات تبني في النهاية الكفاية المزاجية لدى الطفل ، المرتبطة بحاجاته وديناميته البيولوجية . ومن السهل ان نفهم ان النظام الألسني الذي سيتم استيعابه حينئذ سيرتبط بالقيمة التي يمثّلها هذا النظام في الاقتصاد العائلي نفسه وبنوعية العلاقات الغيرية في الخلية العائلية . ويوجد الطفل ، قبل ولادته ، كدال في هذه المنظومة . وتحقيقه - الذي يلي الولادة - هو في الوقت نفسه تعبير للنظام الوراثي الوالدي ، وتعبير لنظام الوالدين الألسني . سيكون « تراث » الطفل اذاً تراثاً بيولوجياً وكلامياً . وبالتالي ، سيُنْقل اليه النظام الألسني الاجتماعي - الثقافي أوّلاً من خلال اجتيافات الوالدين الخاصة ، كما سيكون خاضعاً لتقلّباتهما .

ويمكن ان نتصوّر بسهولة تأثير المجتمع على التكوين الفردي ، وإن عرضنا هذا التأثير بايجاز . بالاضافة الى ذلك ، نستنتج بسهولة هذا التأثير من الفقرات السابقة ، ومن الملاحظات اليومية التي يقوم بها كل

قارىء بنفسه في محيطه .

واذا بدا تأثير النظام الالسني على هذا المستوى تأثيراً نفسياً ، فلا بد من الاشارة الى ان هذا التأثير يتدخل ايضاً ـ وعلى وجه الخصوص ـ على المستوى الاجتماعي .

فاذا ظهر انه يمكن وصف المسألة السيميائية التي تُطرح على النفساني في وضعية الارشاد والعلاج بطريقة سهلة ومتماسكة ، يصبح الامر اكثر تعقيداً اذا عمّمنا هذه النماذج على النشاط الانساني بشكل عام . يمكن ان ندرس مثلاً « الحركية » ، الحركات والايماءات خلال الفحص ، وبشكل مناسب ، استناداً الى السيمياء ، والتأويل ، وما ـ وراء ـ اللغة . ولكن ، اذا نظرنا الى الانسان في حياته اليومية ، تبرز نشاطات حركية (وكلامية) اخرى ، يصعب تصنيفها في منظومة سيميائية بسيطة : كل الحركات التقنية مثلاً . بعبارة اخرى ، كيف يمكن موضعة سلوك الإنسان في عمله ؟ وبأية منظومة اتصال يمكن مقارنة هذا السلوك ؟

فالحركة « التقنية » ، وان كانت خاضعة لقانون النظام الالسني ، لا تضطلع ـ على ما يبدو ـ بوظيفة رمزية . وفي الواقع يكون « للحركة التقنية » قيمة اقتصادية ايضاً . الا ان الامر يتعلّق هذه المرة بالاقتصاد الاجتماعي ، ولا يتعلّق بالاقتصاد النفسي . وقد يكون مفيداً ، في هذا المجال ، تحديد القيمة الرمزية للنقد ، وهو نظام رمزي واضح . الا اننا نبلغ هنا مستوى اجتماعياً على وجه الخصوص . فماركس Marx ، في كتابته « لرأس المال » قد قام ببحث سيميائي وتأويلي . وهو بحث يمكن مقارنته ، على الصعيد الاجتماعي ، بالبحث الذي قام به فرويد على الصعيد النفساني . اذ ندرك ان النظام الاقتصادي سيكون ايضاً نظاماً

دالاً حيث يُستوعب الفرد . ويمكن الاعتقاد بسهولة ان النظام الالسني سيكون ، في مظاهره الوظيفية ، تابعاً للنظام الاجتماعي ـ الاقتصادي . ومقولة الايديولوجيا تغطيّ مجمل هذه المسائل . ولا يمكننا ان نسهب في تناول هذه المسائل التي هي ـ على كل حال ـ من اختصاص علماء الاجتماع مع انها تثير اهتمام النفسانيين . ذلك انه ليس من مصلحة علم النفس ان يُمَزج بعلم الاجتماع او بعلم الإحياء . فعلم النفس يقع على مستوى تمفصل المجالين . ونقول مرة اخرى : ان دراسة انظمة الاشارات هي من اختصاص علماء الإحياء وعلماء الاجتماع . ودراسة تعبير هذه الانظمة على مستوى الفرد هي التي تعني النفسانيين .

2) لكن نموذج الاتصالات قد علّمنا على عدم النظر فقط الى « المفحوص » كعنصر له دلالة في الوضعية ، بل لا بد ايضاً من أخذ النفساني بعين الاعتبار . فالشخص « الخاضع للدراسة » لا يكون وحده معبِّراً عن الالسن (او البنى) ، بل النفساني ايضاً .

وسيستدعي هذا الاخير علم الاجتماع مرّة اخرى لموضعة مستوى نشاطه ودلالته على الصعيد الاجتماعي .

ستكون لنا فرصة العودة مرات اخرى الى هذه المسألة في الفصول المقبلة . وبات من الاكيد انه لا يمكن اهمال هذه المسألة ، ذلك انها ترتبط بالاسئلة التالية :

ـ ماذا يفعل عالم النفس بالضبط ؟

ـ من يخدم ؟

وحتى :

ـ لماذا علماء نفس ؟

بيبليوغرافيا

من البديهي انه لا يمكن ، في هذا المجال ، اعطاء بيبليوغرافيا ـ ولو موجزة ـ حول المواضيع المتعدّدة التي تناولناها في هذا الفصل . وعليه ، نعطي العناوين التالية بمثابة مدخل للقارىء الذي يود تعميق بعض المظاهر بنفسه . وانطلاقاً من وجهة النظر هذه ، سنعطي الافضلية للوثائق الحديثة ، والمكتوبة باللغة الفرنسية ، والشاملة ، والتي يمكن ايجادها بسهولة في المكتبات .

أ ـ عموميات ـ تاريخ

Canestelli (L.), Chauvin (R)., Colle (J.), Fraisse (F.), Klineberg (O.), Musatti (C.), Zazzo (R.). -
Le Comportement, P.U.F., 1968

Fraisse (P.) et Piaget (J.).- **Traité de psychologie expérimentale,** P.U.F., 1963 (Fascicule I : «Histoire et Méthodes»)

Politzer (G.).- **Critique des fondements de la psychologie,** P.U.F., 1967

Reuchlin (M.)-**Histoire de la psychologie,** Q.S.G, P.U.F., 1967.

ب ـ السنية ـ علم نفس لغوي

Barthes (R.)- **Eléments de sémiologie,** Payot, 1969

Chomsky (N.).- **Le Langage et la pensée,** Payot, 1970.

Jones (E.).- **La Vie et l'œuvre de Sigmund Frend,** P.U.F., 1958- 1969; **Grammaire générative et psycholinguistique,** in «Psychologie française», 2- 13- 1968.

راجع أيضاً مجلتي :

Langage (Didier- Larousse); **Langue française** (Larousse):

ج ـ إتولوجيا ـ علم إحياء

Chauvin (R.)- **Psychophysiologie II: Le Comportement animal,** Masson et C ie, 1969

Cosnier (J.).- **Les Névroses expérimentales,** Ed. du Seuil , 1966

Lorenz (R.).- **L'Agression,** Flammarion, 1969.

Lwoff.- **L'Ordre biologique,** Laffont, 1969.

Ruwet (J.- C.).- **Ethologie : Biologie du Comportement,** Dessart, 1969.

Tinbergen (N.).- **La Vie sociale des animaux,** Payot, 1967.

Viaud (G.); Kayser (C.) , Klein (M.), Medioni (M.)- **Traité de psychophysiologie,** « P.U.F. , 1967.

3 ـ علم النفس كمهنة

متّحد علماء النفس

اذا كان يصعب تحديد علم النفس كعلم ، فهذا لا يمنع وجوده عام 1970 دون ان يكون مجرّد « فن جدال » . كما ان بعض المتمرّسين يستندون الى هذا العلم للتلقّب ، وايجاد عمل ، والانخراط في الدورة الاجتماعية ـ الاقتصادية دون ان يعلّموه في الجامعة . الا ان تنوّع مهن هؤلاء المتمرّسين ، وتباين ثقافتهم وتصوّراتهم ومراجعهم النظرية يدفعاننا الى طرح السؤال التالي : هل يمثّل علم النفس مهنة او مهناً متعدّدة . حتى انه يمكن طرح السؤال الذي شكّل عنواناً لكتاب جديد لـ م . ريشيلM.Richelle : « لماذا علماء النفس ؟ » .

ويمكن ، بغية تصنيفهم ، استعمال التقسيم الى ست شعب ، وهو التقسيم الذي اقامته الجمعية الفرنسية لعلم النفس :

علم نفس الطفل ؛ علم نفس العمل؛ علم النفس العيادي ؛ علم النفس الاجتماعي ؛ علم النفس الفيزيولوجي ؛ علم النفس التجريبي ؛

الا ان هذا التصنيف ـ على ما يبدو ـ هو تصنيف نظري اكثر مما هو تصنيف مهني .

لذلك ، نفكّر ـ مع وعينا التام لاعتباطية هكذا اختيار ـ في تقسيم تبعاً لوسط العمل :

* الصحة العامة : عالم النفس العيادي .

* الصناعة وعالم العمل : عالم نفس العمل .

* التربية الوطنية : عالم النفس المدرسي ، ومُرشِد التوجيه المدرسي والمهني .

عالم النفس العيادي

تحديد علم النفس العيادي ليس بالامر السهل . « دراسة معّمقة للحالات الفردية » (ه . بييرون H. Pieron) . « علم السلوك الانساني الذي يرتكز اساساً الى الملاحظة والتحليل المعمّق للحالات الفردية ، السوّية منها والمرضية ، والذي يمكن تعميميه على سلوك الجماعات » (د . لاغاش D. Lagache) . « دراسة الفرد في وضعية وفي تطوّر » (جـ . فافيز ـ بوتونييه J. Favez- Boutonnier ، ود . انزيو D. Anzieu) .

وعلم النفس العيادي قريب من حيث طبيعيته ، ومناهجه ، وموضوعه من علم النفس المرضي وعلم النفس الطبّي الذين يتجهان الى نفي استقلاليته . وفي المقابل ، يأخذ عليه علم النفس التجريبي ـ الذي يعتبر نفسه اكثر علمية ـ كونه مجرّد ممارسة تجريبية empirique . كما يعتبره بمثابة نسيب فقير لعلم النفس العلمي .

الا ان « سندريلا » علم النفس هذه تظهر بشكل مختلف تماماً على

صعيد المهنـة . ذلك ان 50% ـ على الاقـل ـ من علماء النفس هم في الوقـت الحـاضر « علماء نفس عياديون » . ويعرفهـم ب . فريس P. Fraisse على النحو التالي : « هم علماء نفس مؤهّلون للعمل بالتعاون مع الاطباء في مختلف المستشفيات ، وعيادات الصّحة العقلية ، والدوائر النفس ـ تربوية » .

وعمـل علماء النفس العياديين متنـوّع للغـاية ، وذلك حسـب مكانتهم (اجراء بالساعة ـ وهي الحالة الاكثر شيوعاً ـ او متفرّغون باجر مساوٍ لاجور الاساتذة الثانويين ـ او في العيادة كاصحاب مهـن حرّة) وطلب محيطهم .

والوضعية النموذجية هي وضعية النفساني الذي يشارك في استشارة طبقلية او طبية ـ نفسانية وحيث يعمل ضمن فريق . وفي هذا الفريق ، سيُطلب منه غالباً القيام « بالفحص النفسانـي المسلّح » ، اي الفحص الذي يستند الى الروائـز . امـا الـطبيب ـ وهـو طبيب عقلي على وجـه العموم ـ فسيجري الفحص الجسماني والمقابلة الموجّهة التي قد تطول او تقصر لتتناول سوابق المرضى(1) . ثم تُنجزَ « الجميعة » حيث ستُلحـق نتائج الاستقصاء الاجتماعي ، والفحوص المخبرية الخاصة : التصـوير بالاشعـة ، التخـطيط الكهربائـي للدمـاغ . . . الـخ . ومـن هذه « الجميعـة » ، سينتـج « تشـخيص » و « قـرار » علاجـي . وعليه ، سيكون للنفساني وظيفة تكمن اساساً في استخدام « الروائز » . وليس هناك ما يدعو الى التركيز طويلاً على طريقة الروائز ، هذه الطريقة التي

(1) وحيث يسعى الطبيب الى اكتشاف ظروف ظهور المرض وتاريخه .

تكلّمنا أنفاً عن نموذجها السلوكي الضمني . وتبعاً لتصنيف ب . بيشو P. Pichot ، ستُستعمل عادة مجموعتان من الروائز :

- « روائز الكفاية » المخصّصة لتقدير « العمر العقلي » للاطفال « والكفاية العقلية » لدى الراشدين ، وقدراتهم ومعارفهم . وتدرس هذه الروائز « المظاهر المعرفية » للشخصية . ويمكن - من وجهة نظر علم الاتصال - القول انها تسعى الى تحديد « الكفاية » .

- « روائز الشخصية » التي تستكشف الناحية العاطفية ، والدوافع العميقة ، ونماذج الاستجابات والانفعالات لدى الفرد ، ونذكر على سبيل المثل الروائز الاسقاطية (رورشاخ Rorschach ، رائز تبصرّ المتون Thematic Apperception test ، رائز « القرية » Test du Village) . وتسمح هذه الروائز بجمع كلام وباجراء تأويل . وعليه ، تهتم هذه الروائز « بالاداء » وبالمظاهر النفس - لغوية .

واستعمال المجموعة الاولى ليس وقفاً على العياديين . اذ تُستعمل هذه الروائز كاداة من قبل الموجّهين المهنيين وعلماء النفس الصناعيين . وينطبق تحديد الروائز عليها بشكل دقيق . وفي المقابل ، تتّسم المجموعة الثانية بقدر اكبر من الخصوصية : ذلك ان روائز الشخصية لم تُصَمَّم لتصنيف المفحوص بالنسبة لمجموعة مرجعية ، بل لابراز انماط استجاباته الاكثر شخصية ، لدرجة اننا لا نجد اي آيين مماثلاً تماماً لآيين آخر ، رغم ان بعض العوامل القاعدية تسمح باقامة تصنيفات .

وتشكّل « الطريقة الاسقاطية » العنصر الاساسي في هذه الفئة .

وتكمن هذه الطريقة ، كما يكتب انزيو Anzieu (1) في « ان يُقدّم

(1) Les Méthodes projectives, P.U.F, 1965, 2e édit.

الى المفحوص عدّة تتصف باقل قدر ممكن من الانبناء . ثم يُطلب منه ـ اي من المفحوص ـ ان يبنيها كما يشاء ، وهذا ما لا يستطيع تحقيقه الا بكشف بنية شخصيته الخاصة ، و« بإسقاطها » . ولا يعود الامر يتعلق بايجاد الجواب الصحيح ، وهذا يتضمّن عملية تفترض اننا نمتلك الى حدٍ ما خاضع للقياس القدرة التي تتناظر مع البنية الكامنة للسؤال . اذ يجب خلق شيءٍ ما انطلاقاً من لا شيء او من شيء قليل لدرجة انه مجرّد ذريعة . ان عملاً كهذا لا يمكن الا ان يكون على صورة الشخص الذي يخلق ، تماماً كما هو الحال بالنسبة للنتاج الفني ، والرواية ، والمنظومة الفلسفية . . . الخ . ويسمح هذا العمل للنفساني ان يقرأ ، تبعاً لقواعد فك رموز خاصة بنمط العدة وبالنشاط الخلاّق المقترحْين ، بعض سمات طبع المفحوص وبعض انساق تنظيم سلوكه وانفعالاته » .

وهكذا ، يسمح علم النفس العيادي ، وبواسطة الروائز الاسقاطية (حسب انزيو) باستكشاف القطاعات المختلفة التالية : الذكاء في علاقاته بالشخصية ؛ تحقّق المفحوص في اعماله ؛ الاهتمامات ؛ التكيّف الاجتماعي ؛ الاتصال الانساني العميق ؛ ضبط الذات ؛ النضج الانفعالي ودرجات هذا النضج ؛ التاريخ الشخصي وما يتضمنّه هذا التاريخ من عناصر مكونة او هلعية ؛ المآزم (اثر المآزم القديمة ـ استمرار المآزم التي لم تُحَلّ) ؛ الميول العُصابية (والميول الذهانية المحتملة) ؛ اواليات الدفاع ؛ الدوافع المسيطرة (ونذكر على وجه الخصوص العدوانية والدوافع الجنسية ، والتبعية ، والتخلّف في مختلف اشكاله) ؛ الشخصية الظاهرة والشخصية الكامنة ؛ سمات الطبع ؛ العلاقات مع الذات (ونذكر على الاخص النرجسية ومشاعر

القيمة الشخصية) ؛ العلاقات مع الجسد (والاستجابات النفسدية المحتملة) ؛ الانا الاعلى ونظام المحرّمات والقيم الخاصة بالمفحوص ؛ انا المفحوص وتماهياته الاساسية ؛ الاستجابات تجاه النجاح والفشل ؛ انخراط المفحوص في مهامه . . . الخ .

ـ الوضع والاتجاه الحاليين :

في الواقع ، اذا كان من الممكن ملاحظة الصورة التي ذكرناها آنفاً في مجالات عديدة ، فلا بدّ من الاشارة الى ان الوضع يخضع لتغيير عميق ، وذلك بفعل تأثير عدّة عوامل متضافرة .

سأذكر بعضاً منها :

أ ـ عدم رضى علماء النفس

كان علماء النفس العياديون العاملون خلال السنوات العشرين المنصرمة حائزين على إجازة ، وإن تباينت ثقافاتهم . اي انهم كانوا يتابعون دراسات عليا لمدّة ثلاث سنوات . ويستكمل الشباب منهم دراستهم هذه بديبلوم ، مما يضيف سنة دراسية اخرى . الا ان عمل النفساني كما وصفته آنفاً ـ اذا كان مغرياً بالنسبة « للعضو الجديد » ـ لا يلبث ان يتحوّل الى عمل منمّط . فيتولّد لدى المتمرّس انطباعاً محدّداً ، وهو انه مجرّد آلة تجري الروائز ، او « عامل » ، مؤهّل بكل تأكيد ، ولكنه مؤهّل للغاية لدرجة انه لا يرضى مؤبداً بهذه المهنة .

ب ـ خيبة الامل المعرفية

خيبة الامل هذه تنتج جزئياً عن العامل السابق . فروائز الشخصية « الملوّنة » الى حد ما بالمفاهيم التحليلية او بالمفاهيم الخاصة « بعلم نفس

الاعماق » قد اتّسمت في البداية ببعض الغموض . حتى ان البعض قد اعتقد ان هذه الروائز ستسلّم لمستعمليها مفاتيحاً تفتح الابواب واسعة على عالم الاعماق ، عالم اللاوعي . الا ان الكثيرين منهم ، بعد عدة سنوات من التمرّس ، يتساءلون ما اذا كان الامر كذلك فعلاً . بكل تأكيد ، لا يمكن اهمال المساهمة التشخيصية لهذه الروائز . هذه العيادة المسلّحة تسمح بجمع او - بالاحرى - بإحداث بعض العناصر الهامة بالنسبة لفحص محدود زمنياً . ولكن ، ألا تسمح مقابلة دون رائز ، وفي حالات عديدة ، بالحصول على النتيجة نفسها .

اذ يظهر ان الروائز تعطي معلومات لا تختلف - من حيث طبيعتها - إلاّ قليلاً عن المعلومات التي يجمّعها العيادي الماهر خلال فحص نفساني .

ونقول على نحو افضل : اذا عدنا مجدّداً الى الدراسة المنهجية للتقارير المقترحة في الكتب التدريسية حول رائز رورشاخ مثلاً - كما قمنا بذلك مع معاونينا - نلاحظ ان قسماً جوهرياً من المعطيات لا ينتج عن استعمال الطريقة النظرية ، بل عن استعمال العوامل غير المرمزة. واستعمال هذه العناصر يسمح بالقول ان للنفساني « خبرة » و « حدس » او ايضاً « حسّ عيادي » . وهذا ما يفسرّ ايضاً ان المبتدىء - ولو كان عالماً جداً بطريقة رورشاخ - لا يستطيع ان يستنتج المعلومات التي يتوصّل اليها متمرّس مدرّب . هذا امر بديهي ، ولكننا نقع مجدّداً في الحالة العامة للمقابلة العيادية العادية التي حاولت هذه الطريقة تحسينها .

ويمكن دعم هذه الملاحظات التي قد تبدو متطرّفة للبعض باثبات

مثير للدهشة . فرورشاخ الذي توفي عن38 عاماً قد اقترح رائزه وطريقة الفرز عام1921 . ولا يبدو انه قد حصلت تعديلات او تحسينات اساسية منذ ذلك التاريخ. ولا بد لنجاح كهذا ان يطرح بعض المسائل ! الا أن خيبة الأمل المعرفية هذه قد لا تكون نهائية . فتجاوز النموذج التقليدي مثير - استجابة واستبداله بنموذج نظرية الاتصالات كما عرضناه سابقاً يعيدان الاعتبار الى أهمية الفحص النفساني مع توسيعه .

ولكن ، يكون على علماء النفس العياديين حينئذ ان يستعملوا او - على الاقل - ان يكونوا على علم بالتقنيات الخاصة بمجالات اخرى : الالسنية ، الفيزيولوجيا . . . الخ . كما يقتضي عليهم بناء مجال جديد : علم النفس اللغوي . وهكذا ، سيكون عليهم ابتكار تقنيات جديدة لاستكشاف الاطار الفيزيولوجي للكلام ، ولتحليل السيمياء غير اللفظية التي ذكرناها آنفاً .

ج - توسّع الطلب النفساني بفعل العوامل الاجتماعية

وفي مقابل تضخّم تقنيات الاتصال الجماهيرية ، يؤدي شحاح امكانيات الاتصال الفردي اكثر فأكثر الى طلب اشخاص قادرين على تأمين هذه الاتصالات ، والمحافظة عليها ، وتعزيزها . ونشهد هكذا ظهور « مرشدين زوجيين » ، و « مرشدين نفسانيين » ، و « مساعدين في العلاج النفسي » . ولكن غالباً ما يُنتظر من عالم النفس العيادي ان يضطلع بهذه الوظيفة الجديدة . ذلك ان التكوين الثقافي لعالم النفس العيادي يجعله مؤهلاً اكثر من غيره للقيام بهذا الدور .

الا ان انفتاح علم النفس هذا على ميادين جديدة يُبرِز مسألتين لا بد من الاشارة اليهما . ذلك انهما يحدّدان جزئياً مكانة علم النفس

العيادي ومستقبله .

1) التنافس بين الاطباء العقليين والنفسانيين ، والذي يُعاش غالباً على المستوى اللاواعي . واعتبر البعض ان بروز حاجات جديدة للتدخّل النفساني امرٌ يعني الطب العقلي (وفي هذه الحالة ، لا يكون علماء النفس العياديون سوى اطباء عقليين من درجة ثانية يتقاضون اجوراً زهيدة) . في حين يرى الآخرون ان الامر يقتضي بروز فئة مهنية جديدة هي فئة علماء النفس العيادين . وندرك هنا مسألة خصوصية علم النفس . وسنعالج هذه المسألة بشكل موسّع في فصل « علم النفس كوظيفة » .

2) المقاومة البليغة الصادرة من المجتمع والتي تظهر في موقفه المتجاذب تجاه عالم النفس . اذ يستدعيه المجتمع من جهة للاتصال ولكي يتعرّف على رغبته كما يعبّر من جهة اخرى عن خوفه بالهرب وبنفي كل قيمة عن تدّخله . وقد واجه الاطباء العقليون والمحلّلون النفسيون المقاومات نفسها . الا ان الوضع يكون بالنسبة لعلماء النفس اكثر تعقيداً ، ذلك ان ميدانهم ليس متاخماً لعلم الامراض . ويتخوّف بعض النفسانيين من خطر التحوّل الى « مكيّفين » او « مُصلحين » مكلّفين ضمنياً بتمويه مساوىء البنى الاجتماعية ـ الاقتصادية المعاصرة و « المألينة » ، وبالتالي من الوقوع في تواطؤ غير ارادي لا يستطيع ، بدوره ، الا ان يُحدث مقاومات يصعب ضبطها لانها تجد تبريراً لها في عناصر من الواقع . مهما يكن الامر ، يُستعمل علماء النفس في الوقت الحاضر ـ بالاضافة الى وظيفتهم التقليدية كمرشدين او مستشارين ـ كمنشطّي جماعات ، وخاصة في تدريب الموظّفين ، وكمعالجين نفسانيين في دوائر الاطفال .

هذا الوضع غير الثابت ، والمأزمي غالباً ، وغير المرضي موضوعياً (على الصعيد المادي على الاقل) يدفع الكثير من النفسانيين الى المباشرة بالتدرّب على التحليل النفسي . وسنتناول مجدّداً بعضاً من هده المسائل في الفصل الرابع . ونقول اخيرًا ان الامانة تقضي بالالحاح على الواقع التالي : علم النفس العيادي هو نموذج للمهنة المُغْرية التي لا توفر لصالحيها عملاً اكيداً . وعلى الذين يغامرون في هذا المجال ان يكونوا مستعدّين إمّا لتقبّل وظيفة مساعد طبي ـ وهو عضو مقدّر ومفيد في فريق طبي ، ولكنه يتمتع بمكانة متواضعة ـ إما لمتابعة تثقيف شخصي سيتطلّب منهم تضحيات شخصية ، وزمنية ، ومادية ، تفوق بكثير التضحيات الخاصة بغالبية المهن العادية . لكن قد يكون من الخطأ ان ننهي هذه الفقرة بملاحظة متشائمة . فما لا شك فيه ان هذا القطاع من العمل الذي نسمّيه اليوم « علم نفس عيادي » غني بآفاقه : افآق علمية ، وافآق اجتماعية ، وآفاق مهنية . ونأمل ان يتخصّص الشباب القدير في هذا المجال . . . الشباب القدير فقط . هناك عمل كثير . . . دون ان يعني ذلك ان هذا العمل سهل .

عالم نفس العمل

في شهر آذار عام 1968 ، نشرت شعبة علم نفس العمل في الجمعية الفرنسية لعلم النفس ، الكتيّب التالي : « علماء نفس عمل . . . ليقوموا بماذا ؟ » . وهو كتيّب تمثّلت فيه فعلاً هيئة هذه المهنة .

فللمؤسسات الكبرى ـ منذ فترة طويلة ـ دوائرها النفسانية الخاصة او نفسانيوها المتفرغّون . اما المؤسّسات الاقل اهمية ، فيمكن ان تلجأ

الى مكتب استشارات نفسانية ، او ان تتعامل مع عالم نفس اجتماعي مستقلّ :

وقد يعمل عالم النفس الصناعي في ثلاثة مجالات :

- اختيار الموظّفين وتوجيههم .

- التدريب المستمر للافراد على مستويات عدّة ، وذلك بغية تحسين الامرة ، والاتصالات في المؤسسات ، وتعليم الحياة الجماعية . . . الخ .

- تحسين ظروف العمل ، اي « الوظيفة الشغالية » .

وستلجأ الطرق المستعملة الى كل مظاهر علم النفس . ومن وجهة نظر معيّنة ، يمكن القول ان على علم نفس العمل ان يطالب بافضل تكوين ممكن لهؤلاء المتمرّسين. وسيتم الاختيار والتوجيه بفضل فحوص نفسانية تكوين ستتراوح درجة كمالها تبعا لصفات المركز (الوظيفة) او المراكز التي يجب ملأها . الا ان تخصيص 22 صفحة (من اصل اربعين صفحة شكلّت الكتيّب الآنف الذكر) لطريقة الروائز يوحي بان هذه الطريقة هي بمثابة قاعدة تقنية لكثير من المتمرّسين. والتدريب المستمر الذي يزداد المطالبة به اكثر فأكثر سيستعمل غالباً تقنيات الجماعة ، كما سيقتضي من جانب المتمرّسين تكويناً شخصياً متيناً . نقول اخيراً ان المظاهر الشغالية التي ما زالت نامية في فرنسا ، تلجأ الى معارف فيزيولوجية وتكنولوجية تسمح بالتساؤل اذا ما كان لقب المهندس الشغالي افضل من لقب « عالم النفس » .

وعلينا ان نضيف انه في عام 1968 ، كانت شعبة علم نفس العمل

احدى الشعبتين الاكثر عدداً في الجمعية الفرنسية لعلم النفس . كما ان متوسِّط أجور علماء النفس الصناعيين يفوق بكثير متوسِّط أجور الآخرين . وأخيراً ، هناك اعتراف بعلماء النفس الصناعيين من قبل جابي الضرائب ، إذ يقدِّم لهم ضريبة (المستشار النفساني » (في حين يتجاهل النظام علماء النفس العياديين) .

لكن لا يمكن ان ننهي هذه الفقرة دون التأكيد على صعوبة موقع علماء النفس الصناعيين والهجمات التي توجّه ضدّهم :

والنقد الاساسي هو النقد التالي : يكون علماء النفس الصناعيون غالباً في خدمة ارباب العمل الذين يوكلون اليهم بعض المهام التي لا يتجرأون على تنفيذها بانفسهم . فهم ـ اي علماء النفس الصناعيون ـ الغطاء شبه العلمي للقمع الرأسمالي . « وفي كل الحالات ، يكون الهدف هو نفسه : مساعدة مسؤولي المؤسّسة على حلّ بعض المشاكل الانسانية بفضل تطبيقات علم النفس العلمي » . هكذا يكتب علماء النفس الصناعيون بانفسهم (الصفحة6 من الكتيِّب الآنف الذكر) .

ما هو موقفنا من كل ما سبق ؟ من المؤكدّ ان موقع علماء النفس الصناعيين يجعل منهم النفسانيين الاكثر ارتباطاً بالنظام الرأسمالي . ولكن ، من ناحية اخرى ، من المؤكدّ ان الكثيرين منهم يعتبرون انفسهم موظفين اداريين ـ كأي موظف اداري آخر ـ وأجراء ، وانهم يشاركون مصالح (او قضايا) الطبقة العاملة . اخيراً ، قد يكون من الظلم ان نعتبرهم غير واعين لهذه المسائل . وممّا لا شك فيه ان هذا الانشغال قد جعلهم ينهون كتيِّبهم بالتذكير بـ « المبادىء العامة للآداب السلوكية » (واجبات الطبيب نحو مريضه وزملائه) . الا ان هذا لا

ينفي انه ـ كي يتم تجنّب العيش في موقع ذاتي غير مريح ـ يكون على علم النفس الصناعي تنمية مظهره الشغالي ، الذي يضع العمل في خدمة الانسان ، ولا يضع العمّال في خدمة الانسان .

عالم النفس المدرسي والموجِّه المدرسي والمهني

يتحدّد علم النفس المدرسي في المدرسة بوظيفتين رئيسيتين : وظيفة ذات طبيعة نفس ـ تربوية ، ووظيفة توجيه .

وتكمن الوظيفة النفس ـ تربوية في المساهمة في التعليم ، تبعاً لصيغ متنوّعة للغاية.ولا يتعلّق الامر هنا بالتوجيه ـ في المعنى العادي للكلمة ـ بل **بالتكوين** .

وتكمن وظيفة **التوجيه** في ارشاد التلميذ واهله في عملية الاختيار ، مع الأخذ بعين الاعتبار صفات التلميذ والبنى المدرسية . « بايجاز ، نكون هنا تجاه تشخيص او تنذّرٍ آجلٍ ام عاجلٍ » . هكذا يكتب احد روّاد علم النفس المدرسي في فرنسا ، ر . زازو .

في الواقع ، غالباً ما يتم التستير عن العلاقات القائمة بين التوجيه المدرسي والمهني من جهة وعلم النفس المدرسي من جهة اخرى بالتنافسات النقابية (التي تحجب مسألة مركزية هي مسألة مالية . . .) .

يرتبط علماء النفس المدرسيون بالمؤسسة ، ويتم انتقاءهم من بين المعلّمين . ورغم فائدتهم الواضحة ، تبقى مكانتهم غير محدّدة كما يبقى

عددهم ضئيلاً بالنسبة للحاجات . ويدرس عامل النفس المدرسي ، بعد الاتفاق مع الجسم التعليمي ، المسائل التربوية التي يطرحها التعليم (المواد ، المناهج . . . الخ) . ويسعى اساساً الى ابراز الصفات الايجابية للتلميذ اكثر بكثير من سعيه الى تحديد عدم كفاياته بغية الالغاء او الاختيار . ويساعد عالم النفس المدرسي في كشف الاولاد المتخلّفين وغير المتكيّفين . الا ان وظيفته الأساسية ـ ويتعاون في ذلك مع المعلّم ـ تكمن في مساعدة كل التلامذة على التكيّف على المدرسة . وهو يساعد ، جدلياً ، في تكييف افضل للمدرسة على الاطفال .

ونفهم ان يكون عالم النفس المدرسي مهموماً للغاية حين يمر التعليم الرسمي في ازمة . ولكانت هذه الازمة اقل حدّة لو ادّى النفسانيون الدور الذي تكهّن به ، عام 1947 ، نص مشروع لانجفان ـ فالون Langevin- Wallon . ويبدو انه لم يتم تطبيق هذا المشروع لاسباب اقتصادية ولكن ، ألم يكلّف ذلك الدولة اكثر بكثير ؟ (1) .

ومرشدو التوجيه المدرسي والمهني اكثر عدداً . كما يتمتّعون بمكانة محدّدة ، ويرتبطون بمراكز التوجيه والاختيار المهني ، فلا يتبعون مباشرة المؤسسات المدرسية .

ويتدخّلون على مستويات عدّة :

ـ توجيه التلامذة في المراحل الوسطى من التعليم حيث يساعدون مجالس الصف والتوجيه .

---

(1) الا اذا اعتبرنا ان نمو التعليم الخاص ـ الدواء المسكّن لسُقم التعليم الرسمي ـ هو بمثابة الحلّ الاقل كلفة .

ـ الفحوصات الفردية استجابة لطلب الاطفال او الاهل المطالبين بهيئة نفسانية مع مجلس توجيه .

ـ الإعلام الجماعي بالمحاضرات ، والمناقشات ، ونشر الوثائق المرتبطة بمختلف مجالات الحياة المهنية .

لن نسهب اكثر من ذلك في موضوع هذه المهن التي ، من حيث مناهجها ، تتقاطع غالباً مع « علم النفس العيادي » . الا ان مجالها يرتبط بالتربية اكثر مما يرتبط بعلم الامراض . وهو مجال يؤثر « بالوقاية » اكثر مما يؤثر « بالعلاج » .

بعبارة اخرى ، يكون هذا الميدان ـ في نهاية المطاف ـ اكثر اهمية ، ذلك ان « درهم وقاية خير من الف علاج » . ونكرّر مرة اخرى ان سياسة التقشّف التي تعيق نمو علم نفس الطفل هذا هي سياسة لا تتبصرّ بالعواقب ، وهي ، على الارجح ، وعلى وجه العموم ، سياسة اكثر كلفة .

مهنة او مهن متعدّدة ؟

سوف يرى البعض ان ما قلناه حول علم النفس كمهنة موجز للغاية ، وجزئي ، لا بل غير صحيح . . . هذا صحيح . فلم أُشر هنا الا الى ثلاثة مجالات حيث يلتقي في الوقت الحاضر متمرّسون يعتبرون انفسهم نفسانيين . وانطلاقاً مما قيل سابقاً ، عن علم النفس كعلم ، نفهم ان يكون للمهنة مجالاً اكثر اتساعاً . الا اننا سنهتم حينئذ بعلم النفس كوظيفة ، وهذا ما سنقوم به في الفصل الذي يلي . في الواقع ، ارى ان النقد الاوّل الذي يمكن توجيهه الى عرضي هذا هو ان هذا

العرض يوحي بان علم النفس مهنة واحدة . فغالباً ما تكون المسائل التي يثيرها علم نفس العمل اقرب بكثير من تلك التي يعالجها المهندس ـ المستشار اذا ما قارنناها باهتمامات « الزملاء » الآخرين . وهكذا يكون الحال بالنسبة لعالم النفس المدرسي اذا ما قارنناه بالمعلّم ، او بالنسبة للعيادي اذا ما قارنناه بالطبيب العقلي او بالطبيب .

لدرجة انه لم يعد من الممكن التكلّم عن « جذع مشترك » ـ يشكل المنطلق ـ مع تفرّعات طرفية تبعاً للاختصاصات . حتى ان البعض يتساءل بجدّية كليّة واستناداً الى الخبرة التي تم اكتسابها خلال السنوات العشرين الاخيرة ، ما اذا لم يكن من الافضل ، على العكس ، ادخال التكوين النفساني كتخصّص متأخرّ لمختلف المتمرّسين: في عالم العمل (مهندسون ، عمّال ، اداريون) ، وفي عالم الصحة (ممرّضون ، وممرّضات ، مساعدات اجتماعيات ، مدرّبون على اللغة ، او الحركة ، اطباء . . .) ، وفي عالم التربية (تربويون ، ومدرّبون ، معلّمون) . وسنتناول هذه المسألة في الفصل اللاحق .

ولكن هناك ميدان حيث تبرز هذه المسألة بشكل اوضح ، وهو ميدان لم نتناوله حتى الآن . عنينا بذلك ميدان البحث .

فمن البديهي ان « الباحثين في علم النفس » هم اولئك الذين يعملون في موضوع يرتبط بالاتصالات وبمشاكلها . وعليه ، سنجد في هذا الميدان علماء إحياء ، ومتخصّصون في علم الاصوات الكلامية ، وعلماء في الرياضيات ، ومهندسون ، والسنيون . . . الخ . ولا شيء يسمح ، في الوقت الحاضر ، بالقول ان التكوين الثقافي للنفسانيين يهيؤهم ، على وجه الخصوص ، للبحث . ونستثني طبعاً اولئك الذين

تفرّغوا للبحث بدراسات ملائمة (حلقة ثالثة) . لكن النسب الحالية لمراكز الباحثين ضئيلة لدرجة انه من الافضل ، في رأيي ، عدم جعل القارىء يعتقد انه تجاه « مهنة » مرتقبة بالنسبة للمبتدئين في الدراسة . الا ان النفساني المنخرط في فرقة قد يشارك في برنامج البحث في حال وجود برنامج بحث . في هذه الحالة ، قد تكمن مساهمته الخاصة ـ ضمن الفرقة ـ في تسهيل عمل الجماعة . كما ان معارفه في عدة اختصاصات(« مفصلة علم الاحياء ـ علم الاجتماع ») ستجعله قادراً على استيعاب المعطيات وعلى صياغة خطط تجريبية . . .

بيبليوغرافيا موجزة

أ) نشير اولاً الى مجلتين ممتازتين :

Avenirs - **La psychologie, canières et études,** 191- 1968

(بسيط وواضح) .

Revue de l'Enseignement superieur- **La psychologie,** 2- 3, 1966

(عدد شامل للغاية ، مع مقالات لأعلام علم النفس الفرنسي المعاصر) .

ب) حول علم النفس العيادي .

Psychologie clinique, in «Bulletin de Psychologie», 270, 15-19, 1968

ج) حول علم نفس العمل .

Des Psycholgues du travail pour faire quoi?

(نص قدّمته الشعبة الفرنسية للعمـل التابعـة للجمعية الفـرنسية لعلم النفس)

4 ـ علم النفس كوظيفة

جرت العادة ، لدى العامة ، على القول بان من يعرف « فهم الآخر » او « التعامل معه » هو عالم نفس . هذا لا يعني بالطبع انه يحمل شهادة تثبت انه عالم نفس ، ولا حتى انه اكتسب معرفة خاصة في هذا المجال . بل يعني فقط انه مزوّد بقدرات « طبيعية » لممارسة هذه الوظيفة الاتّصالية .

وهكذا يكون علم النفس كعلم ـ في ايامنا هذه ـ اشبه بالتصوّر الحدسي الذي يكوّنه الجمهور عنه . وهذا ، في رأينا ، علامة حسنة .

وهل تكون نوعية علم النفس « البرّي » هذا ، او بالاحرى ، هذه الوظيفة النفسانية او الاتصالية المبتذلة ـ الا انها موزّعة بطريقة غير متساوية ـ ادنى من نوعية « التشكيلة المزروعة » التي يمارسها من امتهنوا علم النفس ؟

هذه مسألة اساسية ، لانها تؤدي الى طرح اسئلة لا نحتاج الى الاشارة الى اهميتها النظرية والتطبيقية ، كالاسئلة التالية مثلاً :

ـ من يمارس علم النفس ؟ ومن يجب ان يمارس علم النفس ؟

ـ هل من الافضل تكوين نفسانيين او تنمية الوظيفة النفسانية ـ حتى بلوغها حدّها الاقصى ـ لدى كل الذين سيستعملونها ؟

ـ في حال بقاء اخصائيين في هذه الوظيفة ، كيف ندرّبهم ، واين نختارهم ؟

ولا مجال للاجابة على هذه الاسئلة . ولكن الملاحظات التي اوردناها في الفصول السابقة قد تساعدنا على طرح الاسئلة هذه على نحو افضل .

من يمارس علم النفس ؟ ومن يجب ان يمارس علم النفس ؟

اذا كان علم النفس كعلم هو دراسة الاتصالات ، ستكمن ممارسته في فعل الاتصال : اي تلقّي الاشارات التي يرسلها الآخر ، وفك رموزها ، ثم ادراك استجاباته الخاصة واستعمالها ، لمتابعة هذا الاتصال وتوجيهه .

وبالتالي ، يؤمن كل فرد اجتماعي وظيفة نفسانية معيّنة . وستكون هذه الوظيفة مقنّنة ، كما ستكون تعيينية وصورية بشكل كامل او شبه كامل حين ستستعمل في الاتصالات التقنية او الاجتماعية ، مع ان كل علاقة تُقام في الحياة اليومية تُدخِل مجموعة المجالات الدلالية لدى المتكلمين . الا ان بعض الوضعيات او بعض المهن تفترض تفهّما اعمق . وهذا لا يصح فقط بالنسبة لعلماء النفس والاطباء العقليين ، بل ايضاً بالنسبة للاطباء والتربويين ، والمعلمين ، والمساعدات الاجتماعيات ، ورجال الدين ، والمحامين . . . الخ . واللائحة ، في الواقع ، قابلة للمدّ . وعديدة هي المهن التي تطالب الآن بهذه الوظيفة ، وحيث يرغب المتمرسّون فيها بتلقي تدريب « على العلاقة » ، تبعاً للتعبير الشائع .

ويظهر هذا « البعد النفساني » لبعض المهن في ايامنا هذه بشكل اوضح ، ممّا كان عليه في الماضي ، مع العلم انه كان موجوداً دوماً ، ويعود ذلك لسببين رئيسيين تتضافر نتائجهما :

- يزداد الطلب العلائقي « للمُستْعمِل » . فيشعر نفسه ضائعاً في مجتمع مألين خيث يُشبع الانتشار الدائم للمعلومات قدرة قنواته . هذه المعلومات تعنيه اجتماعياً ، اي في مظهره المغفل ، ولا تعنيه في مظهره الفارقي الذي ترتبط به هويته . واذا استعملنا النموذج الالسني ، يمكننا القول ان مجتمعنا يعامل الافراد « كاصوات لسان » (فونيمات) ، ولا يعاملهم « كاصوات كلام » . الا ان كل واحد منا يدرك نفسه على هذا النحو الاخير . وتنتج عن ذلك حركتان متناقضتان : جاذبية الجماعة والعُرفية المطلقة (وان اتخذت شكل مقاومة الاعراف(1)) ولكن ايضاً المطالبة الملحّة بأن يتم التعرّف على الفرد في خصوصيته ، اي كمرسل للكلام ، وليس كمجرّد سناد للسان . ويبرز مرض جديد ومستمر : الشُحاح في الاتصالات الفردية ، والذي يزيد من حدّته تزايد الإعلام الجماعي . ويظهر هذا المرض بعدة اعراض اجتماعية . ونذكر منها ، على سبيل المثل ، الظاهرة التي يعرفها الاطباء جيّداً . وهي ان40% الى 60 % من مرضاهم اليوميين يشكون من مشكلة نفسانية او علائقية .

- وفي المقابل ، يضع التطوّر التكنولوجي حدوداً للاتصال بين الافراد ، وذلك بتخصيص هذا النوع من الاتصال . فالانسان المثقّف قد مات ، كما لم تعد الثقافة العامة تعتبر سمة من سمات افضل

---

(1) من البديهي ان الدُرجة هي شكل من اشكال مقاومة الاعراف . ولكن اذا كان الوجه السيء للشخص مختلفاً عن وجهه الحسن ، فهذا لا يعني ان الشخص قد تغيّر .

الرجال ، بل أضحت السمة الرئيسية للسطحيين منهم . اما الاختصاص ، فهو ، على العكس ، برهان على الكفاية والجدّية .

وهكذا تميل المهن الى الانقسام ، والوظائف الى التوزّع . ويتجه كل فرد الى ارسال الرسائل ـ وتلقّيها أيضاً ـ بطريقة انتقائية ، وذلك تبعاً لنظام الاشارات الذي تعلن مكانته عن امتلاكه . فالخروج من نظام الاشارات هذا ، اي تقبّل نمط آخر من الرسائل يصبح حينئذ امراً غير وارد ، واعلامياً ، وتضمينيا ، وغير مرغوب فيه بالنسبة للاخصائي ، وذلك لسببين : ضياع الطاقة الذي يتضمنّه هذا الخروج ، وإقحام ملاءمة الجواب التقني الذي يعطيه هذا الاخصائي .

وتصبح الوظيفة النفسانية عينها في هذا النظام ، تقنيةً وشأناً يهم الاخصائي .

وتنمو في هذا الاتجاه ، مهن النفسانيين ، والاطباء العقليين ، والنفسديين ، ووظائف المرشدين عديدين (كالمرشدين الزوجيين) ، والمضيفات . . . الخ . وهكذا ، في حين يزداد الطلب العلائقي ، تتخذ الاجابة طابعاً مؤسساتياً ، وتتجه حينئذ الى مغادرة الميدان العام .

وللوهلة الاولى ، قد يبدو هذا التطوّر ايجابياً وناتجاً بشكل منطقي عن نمو العلم والتقنيات النفسانية . وهو يشكّل اعترافاً رسمياً بقيمة علم النفس وفعاليته . وكأن هذا التطوّر يبشرّ بالمرحلة حيث سيُضمن لكل فرد ايجاد فرد آخر ـ في مكان ما ـ يتصل معه .

الا ان تحليلاً اقل سطحية يجعلنا ندرك بسرعة ازدواجية هذا التقدّم الظاهر .

فتفويض الوظيفة النفسانية الى اخصائيين لا يقوم الا بتكريس عدول الاخصائيين الآخرين عن الاضطلاع بهذه الوظيفة .

هل نشمت مثلاً بالطبيب الذي يدرك ان 50% من زبائنه يعانون من مشكلة نفسية ، فيلجأ الى خدمات طبيب عقلي او عالم نفس ؟ او يجب ان نأمل ، على العكس ، بان يحاول الطبيب بنفسه الاستجابة لهذا الطلب الموجّه اليه شخصياً ، على ان يكمّل تكوينه الثقافي ، ويناضل كي يعمل زملاؤه في المستقبل في هذا الاتجاه ؟ وان تسمح الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية بممارسة هذا النوع من الطب . . .

هل تتطوّر دائرة استشفاء تلجأ الى خدمات نفساني يعمل كمستخدم مؤقت ؟ او علينا ان نخشى ان يصبح وجود النفساني حجّة كي يتابع كل واحد مهنته الروتينية بكل اطمئنان وراحة بال ؟

الا يمكننا الظن ـ وهذا اخطر ـ ان بنية اجتماعية تقنوقراطية ومُفقِدَةً للانسانية ، وواعية حدسياً لشحاحها الاتصالي ستستجيب ـ بكل بساطة ـ بتنمية تقنية جديدة مُصلِحة لم تُصمَّم لتعديل البنية ، بل لدعمها بتكاليف اقل ؟ ذلك لأن السماح لمختلف المتمرّسين (أطباء ، معلّمون ، تربويون . . . الخ) بالاضطلاع كلياً بوظيفتهم قد يكون اكثر كلفة من ذرّ النفسانيين على المدارس والمستشفيات .

يعيش النفسانيون الشباب هذا اللبَس بطريقة مأزمية ، ويستجيبون لضيقهم الوجودي ، فيتهمون محيطهم بالدفاع عن بنى رجعية دون ان يدركوا دائماً ان وجودهم نفسه هو نتيجة ارجاع اثر سلبي يحافظ على التوازن الاجتماعي ، وان تطوّراً اعمق من شأنه ان يعيد النظر في وجودهم هذا .

اذ يمكن طرح السؤال على النحو التالي : هل يجب تطوير علم النفس كمهنة او يجب تطويره كوظيفة غير منفصلة عن عدة مهن ؟

لن اقترح جواباً ، ولكن يمكن الدفاع عن وثاقة صلة السؤال بالموضوع . ذلك ان مسألة تكوين النفسانيين ترتبط جزئياً بهذا السؤال . وساتناول هذه المسألة بالتذكير اولاً بالوضع الحاضر .

تكوين النفساني

في الوقت الحاضر ، يصبح الطالب عالم نفس بدخوله الى الجامعة ـ حاملاً الشهادة الثانوية ـ بغية اعداد حلقة اولى من الدراسات ـ تستمر لسنتين ـ تؤدي الى الدبلوم الجامعي للدراسات الادبية Diplôme Universitaire d'Etudes Littéraires (D. U. E. L) . ثم يعدّ حلقة ثانية من الدراسات (سنتان ايضاً) حيث تؤدي السنة الاولى الى الاجازة (التي تتألفّ من شهادتين : شهادة علم النفس العام والمقارن ، وشهادة علم النفس الفيزيولوجي) والسنة الثانية الى الجدارة (شهادتان اختياريتان) .

وبعد حيازته على الجدارة ، يمكن لطالبنا هذا ان يعتبر نفسه عالم نفس . الا انه من الافضل (لا بل من الموجب بغية ايجاد عمل) ان يعدّ ، خلال سنة الجدارة ، او بعدها ، ديبلوماً تطبيقياً تتغيرّ تسميته تبعاً للمعهد الذي يمنحه . ولكن هذا الديبلوم يعطي ـ في الوقت نفسه ـ للتخصّص طابعه الرسمي (علم نفس عيادي او مرضي ـ علم نفس صناعي ـ علم نفس مدرسي ـ علم نفس اجتماعي ـ علم نفس تجريبي . . .) . وبالاجمال ، يصبح الطالب عالم نفس بعد اربع او خمس سنوات من الدراسات العليا .

ويتميّز النظام الحالي بالبساطة الظاهرة . الا ان عيوبه كثيرة ، لدرجة ان دراسات علم النفس توصف غالباً بانها من اكثر الدراسات « بلبلة » في الجامعة الفرنسية . فلنذكر بعضاً من الانتقادات التقليدية :

1) ان اكثر من 80% من الطلاب الحائزين على ديبلوم (اجازة - جدارة - ديبلوم اختصاص) مهيؤون ليصبحوا من المتمرّسين (ويمكن مقارنتهم بالاطباء والمهندسين) . اما الآخرون ، فيتوجهّون الى البحث التطبيقي ، في حين تتوجه القلّة الباقية الى البحث الاساسي والتعليم .

الا ان الدراسات الجامعية كانت - حتى هذه السنوات الاخيرة - دراسات نظرية بشكل اساسي . وهذا ما يدفع المتمرّسين الشباب الى القول بايجاز : « كل ما تعلّمناه لا يفيدنا في شيء » .

2) علم النفس - كما رأينا - وليد الفلسفة . والفلسفة ، كألام الطاغية ، قد احتفظت به بعناية قصوى في حضنها الادبي . مما ادّى الى عدّة امراض تتضافر آثارها .

أ) ظل تعليم علم النفس مرتبطاً بكليات الآداب ذات البنية القديمة والتي صُمِّمت اساساً لتكوين معلّمين . ونتيجة لهذا الارتباط ، تكون الشهادات الاساسية التي تُمْنَح الى الطلابِ غير ملائمة للحاجات التي تدّعي سدّها . فالاجازة ، وهي درجة صُمِّمت لتكوين اسانذة المرحلة الثانوية ، لا تناسب - لا من حيث اسمها ولا من حيث شكلها - النفسانيين المتمرّسين . فهي لا تسمح بالتعليم ولا بممارسة مهنة اخرى بقوّة القانون . وغياب العلاقة بالتزام مهني يوِّقع على عيب الشهادة التي نجت من الماضي الادبي لكليات الآداب - وهي خير شاهد على هذا

الماضي ـ ويُدعَم هذا الشاهد بديبلوم الدراسات « الادبية » الذي يتوّج الحلقة الاولى من دراسات طلاب علم النفس[1] .

ب) بالاضافة الى ذلك ، لا تتلقّى كليات الآداب المخصّصة ، في النظام التقليدي ، للتعليم اللفظي الا بِشُحّ الاعانات المالية لشراء الاجهزة التي تطالب بها الاختصاصات الاكثر « تقنية » و « علمية » . وهذا ما يدفع البعض الى اعتبار علماء النفس بمثابة تقنيين تم تكوينهم بتكاليف مخفضة .

ج) ولا يتم إلاّ نادراً التعويض عن هذا الشحاح على الصعيد التطبيقي بمستوى نظري رفيع . ويتجه الكثير من النقّاد الى نعت علم النفس « بالايديولوجية الصرفة » ، وذلك للاسباب التالية : عدم وجود تحديد دقيق لعلم النفس ، وطابعه الفلسفي ، وكونه قد عُلِّم لفترة طويلة من قبل اساتذة تلقّوا تعليماً جامعياً دون ان يمارسوا مهنة النفساني عملياً .

3) بما ان الوظيفة النفسانية هي من اصعب الوظائف ، فهي تُدخِل الصفات الشخصية ، صفات النضج والثقافة . وعليه يكون على النخبة التخصّص في هذا المجال ؛ او على الاقل ، الاشخاص الذين اكتسبوا خبرة راسخة في مهنة حقيقية .

لكن علم النفس يجذب الكثير من المتردِّدين او الهاربين من صعوبات الدراسات الاخرى ، ويتم اختيار نفسانيي المستقبل منذ نهاية

---

(1) بما ان للافكار المنمطّة حياة شظف ، اقتُرح ابتكار ديبلوم جامعي للدراسات الادبية في العلوم الانسانية D. U.E. L. S. H .

المرحلة الثانوية . فيقوم الطلاب بدراسة متخصِّصة جداً ولكنها غير متينة ؛ مما يؤدي الى المحافظة على حالة تخلّف ثقافي مضرّ . اذ سيكون على النفسانيين ان يتعاونوا مع مهندسين ، واطباء ، ومعلّمين . وسيكونون ، بالنسبة اليهم ، في موقع دوني . وفي هذا الامر ضرر مزدوج : اذ سيؤدي الى كبح نمو علم النفس ، كما سيؤدي الى وضع النفسانيين في وضعية محبطة على الصعيدين النفسي والمالي .

« النفسانيون مثيرون للضحك . فهم لا يعرفون شيئاً . ويأتون كي يملوا علينا سلوكنا » . هكذا يعلن التقنيون الذين يحتلون مرتبة ادنى من مرتبة النفسانيين .

طبعاً ، تكون هذه الانتقادات الصارمة ظالمة في عموميتها . ولكن الضيق بلغ حدّاً لم يعد يسمح بالتكلّم سرّاً .

لكن علينا ان نضيف بعض العناصر المتعلّقة بتكوين الموجّهين المدرسيين والمهنيين ، والمحلّلين النفسيين ، والاطباء العقليين .

ـ من الممكن ـ من الآن فصاعداً ـ تكوين مرشدي التوجيه المدرسي والمهني تبعاً للسياق التالي : الشهادة الثانوية + سنتا حلقة اولى (ديبلوم جامعي للدراسات الأدبية D. L. E. L أو ديبلوم جامعي للدراسات العلمية D. U. E. S) + سنتا تأهيل متخصّص في معهد .

ـ علماء النفس المدرسيون (درجة اولى) : سيكونون من المعلّمين : دار معلّمين + خمس سنوات في التعليم + سنتا دراسات عليا متخصّصة .

المحلّلون النفسيون : عليهم امتلاك مستوى ثقافي رفيع (ليس من

الضروري ان تكون هذه الثقافة طبية او نفسانية) . كما عليهم القيام بتحليل نفسي شخصي (او « تدريسي ») قبل ان يتم قبولهم كتلامذة في معهد وتبعاً لمقاييس نفسانية . فيمارسون حينئـذ التحليل النفسي تحت اشراف محلِّل نفسي متمرّس ، كما يشاركون في حلقات تعليم . المدّة : يستحيل تحديدها . ولكن ، نظراً الى التكوين المهني السابق ، لا يمكن للفرد ان « يصبح محلِّلاً نفسياً » قبل بلوغه الثلاثين من العمر .

ـ الاطباء العقليون : بعد انهاء دراساتهم الطبّية ، يتخصّصون في الطب العقلي خلال اربع سنوات . المدة متغيِّرة ، ولكن حدّها الادنى هو تسع سنوات .

وانطلاقاً من هذه العناصر المختلفـة ، ومـن وضــعية علـم النفس المعرفية ، واطاره المهني الحالي ، لا يتردّد البعض في التأكيد على ما يلي : ان علم النفس الاكاديمي مُشرِف على الموت ، فلنقض عليه لاختصار اوجاعه .

ويكون علـم النفس وظيفـةً بشـكل اسـاسي . وعليه ، سيكون النفسانيون متمرّسين من اصول مختلفة يشعرون بميل للتخصّص في هذه الوظيفة ، وذلك لصالح مهنتهم : معلّمـون يتحوّلون الى علماء نفس مدرسـين ، اطبـاء يصبحـون علماء نفس عياديين ، مهندسـون يتخصّصون في الشغالة ، ممرّضات ، مساعدات اجتماعيات . . . الـخ يكتسبن تخصّصاً في علم النفس العيادي ، والعلاج النفسي ، والعلاج الشغالي ، والارشادات الزوجية . . . . الخ .

وتبعاً لوجهة النظر هذه ، قد لا يعود كون الفرد عالم نفس ناتجاً عن تخلّف ثقافي ، بل يكون ، على العكس ، نتيجة لتخصّص اضافي تمّ

« زرعه » على ممارسة (او تكوين) مهينة سابقة . وعند الاقتضاء ، قدّ يتخصصِ الطلاب مباشرة في علم النفس . ولكن ، في هذه الحالة ، لا يتخصّصون في هذا العلم بعد الشهادة الثانوية ، بل على مستوى الحلقة الثانية ، او حتى الحلقة الثالثة ، أي بعد حيازتهم على حلقة اولى من الدراسات غير المتخصّصة . وقد تكون حلقة الدراسات هذه علمية ، او طبّية ، او قانونية ، أو ادبية . (وهذا ـ على ما يبدو ـ ما يُقترح على مرشدي التوجيه والاختيار المهني) .

واخيراً ، يمكن تلخيص وجهة النظر هذه على النحو التالي : « كي ننمّي المهنة بطريقة صحّية ، علينا اولاً تنمية الوظيفة . كما علينا اعتبار المهنةَ بمثابة ترقية وليس كتخصّص ناقص » .

بيبليوغرافيا موجزة

بعد ج . بوليتزر الذي ذكرناه آنفاً :

Richelle (M.)— **Pourquoi les psychologues**, Dessart, 1968.

Deleule (D.) - **La psychologie, mythe scientifique**, Laffont, 1969.

-- «Cahiers de Psychologie du Sud-Est», 12, 1969.

5 ـ خلاصات

هل وجد القارىء جواباً على اسئلته ؟ او ، هل وجد ، على الاقل ، جواباً على الاسئلة التي طرحناها في المقدّمة ؟ هل يمتلك الآن مفاتيحاً ؟ ولأية اقفال ؟ هل يمكن القول ان الصرح ـ الذي من المفترض ان تفتح هذه المفاتيح ابوابه ـ قد شُيِّد ؟

يمكن القول ، على الاكثر ، ان المشروع الضخم قد بدأ ، وذلك بفعل التأثير المترافق للاتولوجيا والالسنية والتحليل النفسي .

وهكذا ، سيصبح علم النفس اختصاصاً علمياً مركزّاً على الاتصال البشري . ولهذا التوجّه الجديد فائدة كبرى . ذلك انه يسمح باستيعاب الاكتسابات السابقة للقياس النفسي ، وعلم النفس التجريبي ، وعلم النفس الفيزيولوجي . كما يسمح ايضاً ـ وهذا امر نادر وايجابي ـ بجعل علم النفس مطابقاً لحدس الجمهور .

لا نعرف بعد الشكل النهائي الذي سيتخذه هذا المشروع إثر انجازه . وقد تخضع مهنة النفساني الى تعديلات عميقة . فتصبح وظيفته اكثر وضوحاً ، ونظريته اكثر دقة واكثر ملاءمة لمهنته .

ويُعتبر الكائن البشري في مرحلتنا هذه بمثابة منظومة قادرة على

تنظيم المادة ومعالجة المعلومات بفضل نظامين : النظام الوراثي والنظام الالسني .

وعليه ، لا يشير علم النفس الى « ميدان » يمكن مقارنته بعلم الإحياء وعلم الاجتماع ، بل يشير بالاحرى الى حدود . ويهتم علم النفس بالتقاء النظام البيولوجي والنظام الالسني ، وبتعبيرهما الحاصل على مستوى الفرد .

فحين يهتم النفساني بدراسة الاوليات العامة ، والقوانين ، والبنى ، انما يقوم بدراسة الكفاية . اما الاهتمام بدراسة التمظهر العياني لهذه الاوليات والقوانين ، اي « المأسآة » الانسانية - تبعاً لتعبير بوليتزر - فهو اهتمام بدراسة الأدآء .

ثمة جدلية مستمّرة تربط هذه المظاهر المختلفة ، تماماً كما هو الحال بالنسبة للعلاقات التي يجب ان توجد بين النظرية والتطبيق .

فسوء تقدير التقنيين للعلم ، واحتقار الباحثين للتطبيق ناتجان عن سوء تفاهم . (وعلى العلم تفسير سوء التفاهم هذا) . ذلك انه ليس من الضروري الالمام بالميكانيك لقيادة سيارة مثلاً . كما « لا يفيد في شيء » معرفة النحو او الاملاء ، ولا حتى اسس القراءة والكتابة ، لفهم الفرنسية المحكية .

من جهة اخرى ، ليس من الضروري ان يكون الميكانيكي سائقاً ماهراً . كما قد لا يكون النحْوي كاتباً جيداً او خطيباً موهوباً .

هذا التمييز بين نظام الاشارات وتعبيره العياني تمييز هام للغاية . ذلك ان النفساني هو ، في الآن نفسه ، منظِّر الاتصال ووكيله . اذ

يكون النفساني ، على الدوام ، منخرطاً في الوضعية. وتشكلٌ شخصيته اداة عمله الاكثر ثمناً .

فالاستيعاب الضروري لصياغة ما وراء لغته سيتم - في نهاية المطاف - في دماغه . لذلك ، سيستعمل النفساني « معرفته » (النظام المرجعي ، او الانظمة المرجعية « والكفاية ») . لنقل ، على اي حال ، انه سيستعمل عدداً من النماذج . وهذا ما يشكلٌ نشاطه التعييني او السيميائي العقلاني .

ولكن النفساني سيستعمل ، بالاضافة الى ذلك ، استجاباته الاكثر غموضاً ، اي الاستجابات التضمينية ، التي ستسلّمه غالبا المفتاح التأويلي الضروري لاكتشاف المعنى او المعاني وراء الدلالة . وسيحاول النفساني المنخرط ارادياً في الوضعية ان يستعمل - قدر الامكان - شخصيته واستجاباته الدلالية الخاصة . سيستمع الى المفحوص ، كما سيستمع من جهة اخرى - واذا صحّ التعبير - الى نفسه . وهذا الموقف الذي يتضمّن التلقّي الخارجي ، والاستنباه الداخلي(1) يتطلّب تكونياً عميقاً يستحيل تنظيمه . ولكن هذا الموقف لا يكتسب - على وجه العموم - الا بوسائل دينامية (علاج نفسي ، تحليل نفسي ، جماعات تأهيل) . ونشير الى ان فرويد قد توصّل الى اكتشاف هذه المفاهيم وإلى استعمالها في ممارسة العلاقة التحليلية .

---

(1) التلقّي الخارجي : تلقّي المعلومات الخارجية . التقبّل الذاتي : تلقّي المعلومات المرتبطة بالحركة والسكون (وهي معلومات تصدر عن العضلات ، والعظام ، والمفاصل . . .) استنباه داخلي : تلقّي المعلومات الداخلية ، الحشوية منها والمزاجية . ونستعمل العبارة هنا في معناها العام ، ذلك لأنها تشير الى الادراك والى استيعاب (الشحنة العاطفية » .

ويبدو لنا الامر على النحو التالي : إذا كان علم النفس قد حُدِّد خلال مرحلة بكاملها كعلم للسلوك ، فهو يدخل الآن في مرحلة جديدة حيث سيتحوّل الى علم الاتصالات الداخلية أو البين ـ شخصية . وبما انه لا يمكن دراسة الاتصالات الا بدراسة التصرّفات او آثارها ، يصبح من السهل ـ والمفيد ـ استيعاب ارث الابحاث السابقة . الا اننا سننظر الى التصرّفات كسناد للدلالة . وهكذا ، سيصبح عالم النفس محللاً للطلاسم ، وواهباً للمعاني ، ولاقطاً ، وكاشفاً للعلامات ، ومفككّاً لرموزها . وسينتمي علم النفس ، في آن معاً ، الى « السيمياء » و « علم الدلالة » . ولكنه سينتمي الى سيمياء **الكلام** ، والى علم دلالة **الكلام** ، وليس الى سيمياء اللسان او علم دلالة اللسان .

« والكلام » ، هنا ، مرادف « للرسالة » . اما « اللسان » ، فهو مرادف « للنظام » . وسيكولوجية الانسان الكلي لا تهتم فقط بالكلام اللفظي ، بل ايضاً بالاتصال غير اللفظي ، باطارهما الفيزيولوجي المشترك .

ولا يجب ، رغم الاهمية الوجودية للنظام الالسني ، ان ننسى الجذور البيولوجية لهذا النظام . فهو وليد النظام الوراثي ، وإن نفى ذلك في كثير من الاحيان . والانعكاس النفسي الداخلي للصراعات بين النظامين ـ الوراثي والالسني ـ هو ، تماماً كما ادركه فرويد ، في اساس الصعاب . والانشقاق الوظيفي للنظامين لا يمكن ان يؤدي الا الى افلاس في التوازن .

ولا يمكن تفسير السلبية التي تظهر في الوقت الحاضر لدى الشباب تجاه الضغوطات والاعراف الا كردّة فعل النظام الوراثي على الهيمنة

المميتة للنظام الالسني الذي اصبح نظاماً طاغياً . وتتجسّد هذه القدرة الاسطورية في عبادة الناظمة الآلية التي لم يتم تصميمها كمساعد للفكر الانساني ، بل كمثال اعلى لهذا الفكر . ومّما لا شك فيه ان الناظمة الآلية قادرة على التعيين ، ولكنها تقاوم التضمين ، والشعر ، والحلم ، والحب . اي انها ؛ في الآن معاً ، عقلانية تماماً ، وفاقدة للحس (وللمعنى) .

الا ان عمل النفساني مركزّ اساساً على كشف المعنى وتنميته ، وعلى دراسة افضل الظروف الممكنة لتنمية هذه الوظيفة .

وبهذه الطريقة ، يتجنّب علم النفس الوظيفة « التكييفية » و « التكنوقراطية » التي يتّهمه بها البعض . فعلم النفس لا يلغي الصرعات ، ولا يتجنّب المشاكل . فهو ـ على العكس تماماً ـ يوضح هذه المشاكل ، علم النفس فاضح للحقائق .

نأمل على أي حال ، أن يصبح فاضحاً للحقائق .

وثائق ملحقة

1 ـ التوزيع العالمي لعلماء النفس .

(تبعاً لمعطيات « الاتحاد الدولي لعلم النفس العالمي في « الصحيفة الـدولية لعلـم النفس «Journal international de psychologie, 1970-5-1» .

افريقيا الجنوبية	305	ايطاليا	311
المانيا		اليابان	2000
الجمهورية الاتحادية	2030	المكسيك	345
الجمهورية الديموقراطية	244	النروج	360
انكلترا	4188	زيلندا الجديدة	345
استراليا	1500	الفيليبين	95
بلجيكا	350	بولونيا	1005
البرازيل	356	رومانيا	370
كندا	1000	السويد	2772
كولومبيا	131	سويسرا	278
كوبا	80	تشيكوسلوفاكيا	580
الدانمارك	489	اسبانيا	500

فنلندا	450	تركيا	54
فرنسا	1560	الاتحاد السوفياتي	1500
هولندا	1200	الاوروغواي	322
هنغاريا	396	الولايات المتحدة	27250
الهند	227	فينيزويلا	200
ايران	60	يوغوسلافيا	277

اي ما مجموعه 53130 عالم نفس

2 ـ ابحاث ومنشورات

ان عدد المنشورات التي يمكن اعتبارها منشورات نفسانية كبير للغاية . ويمكن الاستفادة من هذه المقالات بفضل بعض المجلّات التي تقوم باحصاء وتحليل شهري للمقالات والكتب التي تصدر في العالم .

بالنسبة للمنشورات الفرنسية ، نشير على سبيل المثل الى الكرّاسة الشهرية « علم النفس ـ علم النفس المرضي » -Psychologie psychopathologie التابعة للنشرة العلمية التي يصدرها المركز الوطني للبحث العلمي .

ولاعطاء فكرة عن الابحاث الحالية في علم النفس ، سنذكر المواضيع الرئيسيّة وعدد المقالات المرتبطة بها ، وذلك استناداً الى الكرّاسة 12-11 الصادرة عام 1969 (وهو عدد اخترناه عشوائياً) .

عموميات	32	الشخصية	32
مناهج علم النفس	188	علم النفس الفيزيولوجي	79
مستويات النشاط	21	علم النفس الاجتماعي	103
الاحساس ـ الادراك	65	علم النفس التطبيقي	112
الحركية	38	علم النفس الفارقي	18
الدافع ـ الانفعال ـ التعبير	17	علم نفس الطفل والمراهق	182
التعلّم ـ التشريط	184	علم نفس العجوز	12
العمليات الذهنية	54	علم نفس الحيوان	233
اللغة ـ علم النفس اللغوي	21		

3 ـ المعاجم الفرنسية

J. Laplanche et J.- B. Pontalis- **Vocabulaire de la psychanalyse,** P.U.F.

H. Pleron.- **Vocabulaire de la psychologie,** P.U.F.

A. Porot.- **Manuel alphabétique de psychiatrie,** P.U.F.

R. Lafon.- **Vocabulaire de psychopédagogie et de psychiatrie de l'enfant,** P.U.F.

P. Marchais.- **Glossaire de psychiatrie,** Masson

L. Moor.- **Glossaire de psychiatrie, de psychologie pathologique et de neuro-psychiatrie infantile** , Masson.

4 ـ كتب من المجموعة نفسها

(قد تكمّل معلومات القارىء)

J. -M. Auzias. -Clefs pour le structuralisme, Seghers, 1967

G. Mounin. - Clefs pour la linguistique, Seghers, 1968.

G. -P. Brabant. -Clefs pour la psychanalyse, Seghers, 1970.

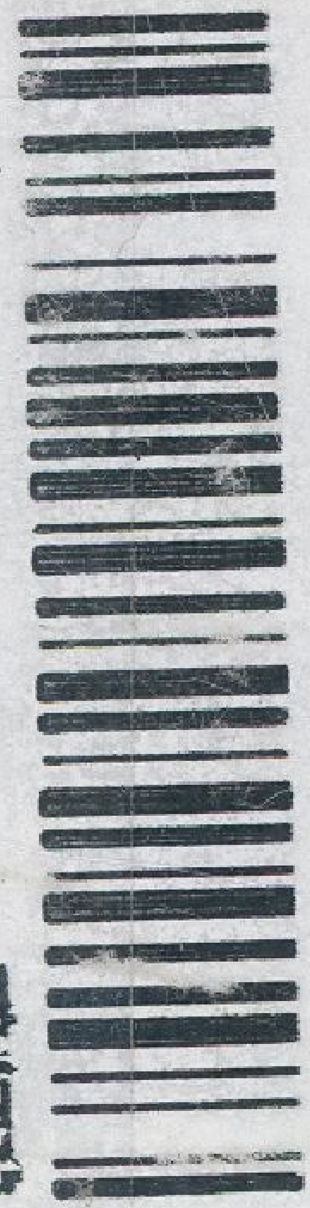
المحتويات

الموضـــوع **الصفحة**

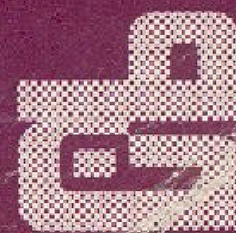
1982 / 11 / 109

هــذا الكتاب

كان علم النفس ، خلال تاريخه ، دائم التأثر بالميادين الاخرى ، وظلّ لحقبة طويلة من الزمن تابعاً للفلسفة التي كانت ـ على حد تعبير كوسينيه ـ بمثابة الأم الطاغية . ولم يستقلّ عن الفلسفة إلا بعد التمييز الذي أقامه الفيلسوف الفرنسي ديكارت بين كيانين مستقلّين : « النفس » أو « الروح » أو حتى « الوعي » من جهة ، والجسد من جهة أخرى . فتحوّل علم النفس ، بفضل الثنائية الديكارتية ، إلى علم « للحياة النفسية » ليصبح في بداية هذا القرن ، وأثر « البيان السلوكي » الذي أصدره واطسون ، « علماً للسلوك » . وكان خلال مراحل تطوّره هذه متأثراً بالعلوم البيولوجية والنماذج الرياضية . أما في مرحلتنا المعاصرة هذه ، فيبدو علم النفس شديد التأثر بميدانين حديثين نسبياً وهما الاتولوجيا من جهة والالسنية من جهة أخرى . ويميل إلى أن يتحوّل تدريجياً إلى « علم للاتصال » . حتى أن كوسينيه يدعونا إلى التخلّي نهائياً عن عبارة « علم النفس » التي أضحت ، في رأيه ، عبارة بالية لاستبدالها بعبارة « علم الاتصال » .






المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع